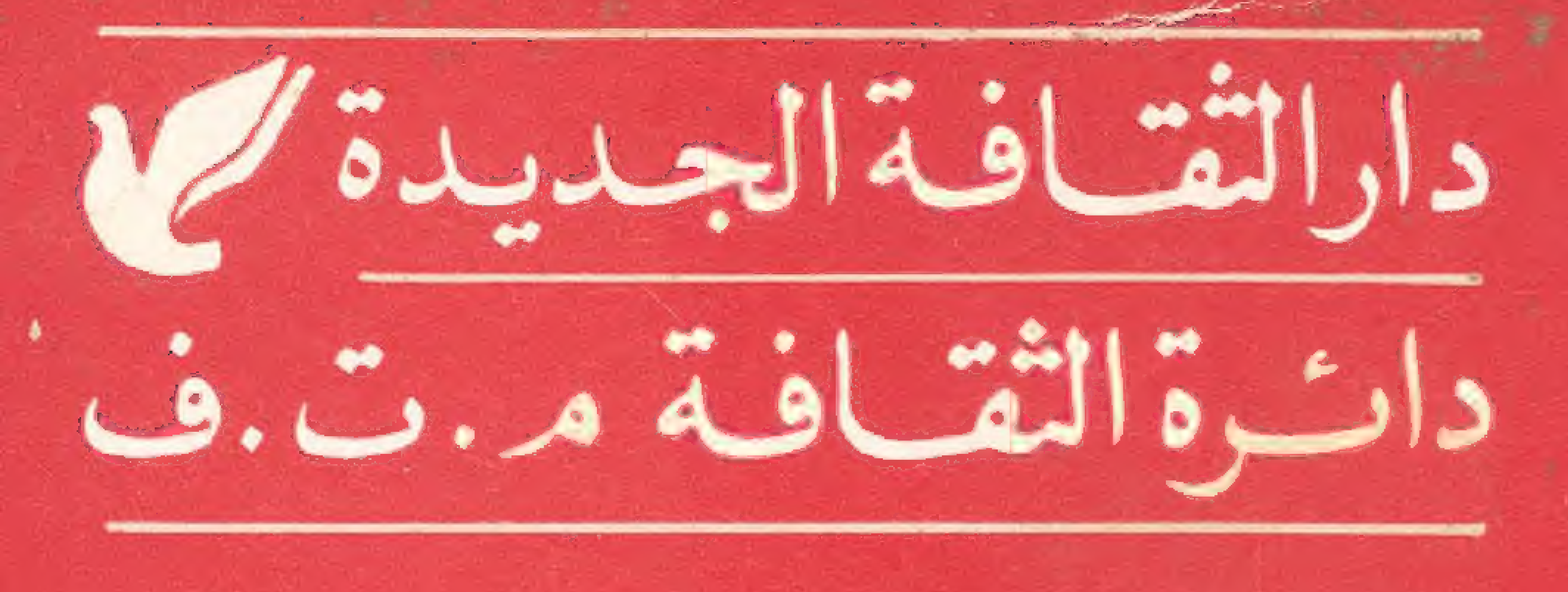
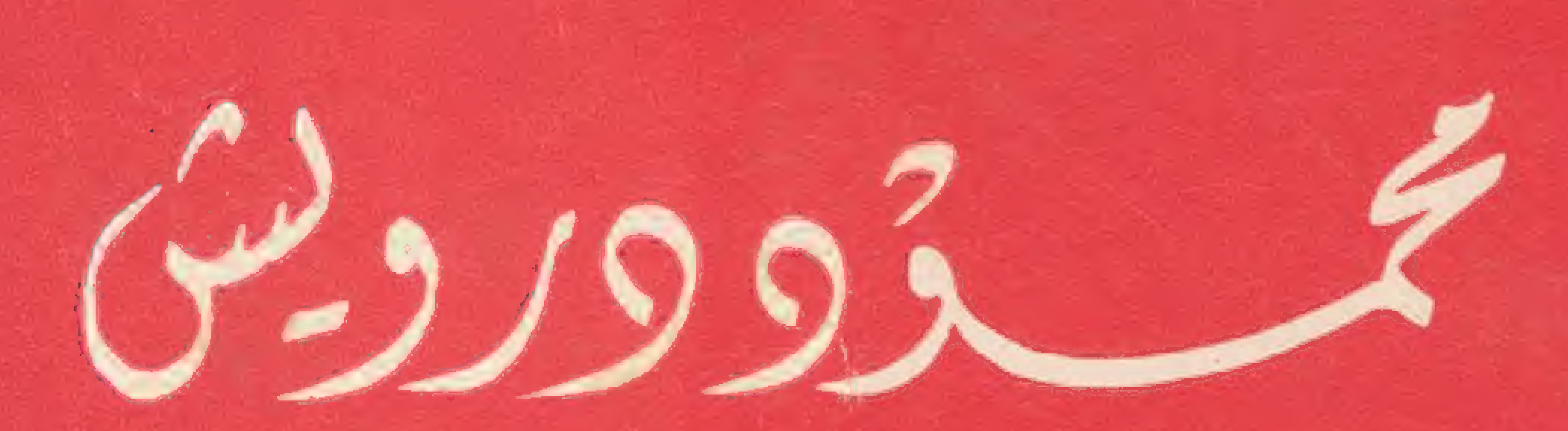






ذاكرة للنسيان

ذاكرة... للنسيان

* ذاكرة للنسيان
* محمود درويش
* طبعة خاصة، القاهرة ١٩٨٩

* دار الثقافة الجديدة ـ مصر
* دائرة الثقافة ـ منظمة التحرير الفلسطينية

٢٠

ذاكرة... للنسيان

الزمان: بيروت

المكان: يوم من آب ١٩٨٢

محمود درويش

من المنام يخرج منامٌ آخر: هل أنتَ في خير، أعني هل أنتَ حيّ؟
- كيف عرفتِ أني كنتُ أضع الآن راسي على ركبتيك وأنام؟
- لأنك أيقظْتَني حينَ تحرَّكْتَ في بَطني. أدركت أني تابوتك، هل أنت حيّ؟ هل تسمعني جيداً؟
- هل يحدث ذلك كثيراً: أن يوقظني من المنام منام آخر هو تفسيرُ المنام؟
- هاهو يحدث لي ولك.. هل أنتَ حيّ؟
- تقريباً.
- وهل أصابتك الشياطين بسوء؟
- لا أعرف، ولكنَّ في الوقت متسعاً للموت.
- لا تَمُتْ تماماً.
- سأحاول.
- لا تمت أبداً
- سأحاول
- قل لي: متى حدث ذلك؟ أعني متى التقينا، متى افترقنا.

ـ منذ ثلاثة عشر عاماً.

ـ هل التقينا كثيراً؟

ـ مرتين: مرةً تحتَ المطـر، ومـرةً تحت المطـر، وفي المـرة الثالثة لم نلتق. سافرتُ. ونسيتُكِ. وقبل قليل تذكرت. تذكرتُ أني نسيتُكِ. كنتُ أحلم.

ـ وهـذا ما يحدث لي.. كنتُ أحلم. ولقـد حصلتُ على رقم هاتفـك من صديقة سويدية قابلتك في بيروت. أتمنى لك ليلة سعيدة. لا تنس أن لا تموت. ما زلتُ أريـدك. وعنـدمـا تحيا ثانية، أريدك أن تكلمني. يا للزمن.. ثلاثة عشر عاماً. لا. لقد حدث ذلك الليلة. أتمنى لك ليلة سعيدة..

* * *

الساعة الثالثة. فجرٌ محمولٌ على النار. كابوس يأتي من البحر. دُيُوك معدنية. دخان. حديد يُعِدُّ وليمة الحديد السيِّد. وفجر يندلع في الحواس كُلِّها قبل أن يظهر. وهدير يطردني من السرير ويرميني في هذا الممرِّ الضيق. ولا أريد شيئاً، لا أتمنّى شيئاً ولا أقدر على إدارة أعضائي في هذا الاضطراب الشامل. لا وقت للحيطة، ولا وقت للوقت. لو أعرف فقط، لو أعرف كيف أنظِّم زحام هذا المـوت المنصبّ لو أعـرف كيف أحـرِّرُ الصـراخ المحتقن في جَسَـدٍ لم يعـد جسدي من فرط ما حاول أن ينجو في تتبُّع فوضوي القذائف. كفى.. كفى ـ همستُ لأعرف إن كان في وسعي أن أفعل شيئاً يدلني عليّ.. ويشير إلى مكان الهاوية المفتوحة من جهات ست لا أستطيع أن استسلم لهذا القدر ولا أستطيع أن أقاومه. حديد يعوي فينبح له حديدٌ آخر. حُمّى المعادن هي نشيد هذا الفجر.

لو استراح هذا الجحيم خمس دقائق. وليكن من بعد ما هو بعد. خمس دقـائق. أكـاد أقـول: خمس دقـائق فقـط أعدّ خلالها عُدَّتي الوحيدة ثم أتدبر موتي أو حياتي. خمس دقائق هل تكفي؟ نعم.. تكفي لأتسرَّب من هذا الممر

الضيِّق المفتوح على غرفة النوم، المفتوح على غرفة المكتبة، والمفتوح على حمّامٍ لا ماء فيه، والمفتوحِ على المطبخ الذي أتحفز لدخوله منذ ساعة ولا أستطيع . . لا أستطيع أبداً.

نمتُ قبل ساعتين. وضعتُ قِطْعَتَيْ قُطْنٍ في أذنيَّ، ونمت بعدها استمعتُ إلى نشرة الأخبار الأخيرة. لم تقل إني ميت. معنى ذلك أنني حيّ. تفقَّدْتُ أعضاء جسمي فوجدتها كاملة: عشر أصابع تحت. عشر أصابع فوق. عينان. أذنان. أنف طويل. اصبع في الوسط. وأما القلب فانه لا يُرى. ولا أجد ما يشير إليه سوى قدرتي الخارقة على إحصاء أعضائي، ومسدس ملقىً على أحد رفوف المكتبة. . مُسَدَّس أنيق، نظيف، لامع، وصغير الحجم بلا رصاص. أهدوني مع المسدس علبة رصاص لا أعرف أين خبأتها منذ عامين تخوفاً من حماقة، خوفاً من فورة غضب طائشة، خوفاً من رصاصة طائشة. إذن أنا حيّ، وبتعبير أدق: أنا موجود. .

لا أحد يستمع إلى الرجاء المرفوع على الدخان: أريد خمس دقائق، لأتمكن من وضع هذا الفجر، أو وحصتي منه، على قدميه ومن التأهب للدخول في هذا اليوم المولود من عويل. هل نحن في آب؟ نعم نحن في آب. وتحولت الحرب إلى حصار. أبحث في الراديو المتحول إلى يد ثالثة، عما يحدث الساعة فلا أجد شاهداً ولا خبراً، فالراديو نائم.

لم أعد أتساءل متى يتوقف عواء البحر الفولاذي. أسكن على الطابق الثامن في بناية تغري أي صيّاد بالاصابة، فما بالك بأسطول حربي يحوِّل البحر إلى أحد مصادر جهنم؟ واجهة البناية الشمالية كانت تُمتِّع سكانها بمشهدٍ ما لسقف البحر المتجعِّد، لأنها واجهة من زجاج، والآن انقلبت إلى عواء المصرع. لماذا سكنتُ هنا؟ ما هذا السؤال الأحمق! فمنذ عشر سنين وأنا أسكن هنا، ولا أشكو من فضيحة الزجاج.

ولكن، كيف أصلُ إلى المطبخ؟

أريد رائحة القهوة. لا أريد غير رائحة القهوة. ولا أريد من الأيام كلها غير رائحة القهوة. رائحة القهوة لأتماسك، لأقف على قدميَّ، لأتحول من زاحف إلى كائن، لأوقف حصتي من هذا الفجر على قدميها، لنمضي معاً، أنا وهذا النهار، إلى الشارع بحثاً عن مكان آخر..

كيف أذيع رائحة القهوة من خلاياي، وقذائفُ البحر تنقضُّ على واجهة المطبخ المطل على البحر لتنشر رائحة البارود ومذاق العدم؟ صرت أقيس المسافة الزمنية بين قذيفتين. ثانية واحدة.. ثانية واحدة أقصر من المسافة بين الزفير والشهيق، أقصر من المسافة بين دقّتيْ قلب.. ثانية واحدة لا تكفي لأن أقف أمام البوتاغاز الملاصق لواجهة الزجاج المطلة على البحر. ثانية واحدة لا تكفي لأن أفتح زجاجة الماء، ثانية واحدة لا تكفي لأن أصب الماء في الغلاية. ثانية واحدة لا تكفي لإشعال عود الثقاب. ولكن ثانية واحدة تكفي لأن أحترق..

أقفلتُ مفتاح الراديو. لم أتساءل إن كان جدار الممر الضيِّق يقيني فعلاً مطر الصواريخ. ما يعنيني هو أن ثمة جداراً يحجب الهواء المنصهر إلى معدن يُصيب اللحم البشري، بشكل مباشر، أو يتشظّى، أو يخنق. وفي وسع ستارة داكنة - في مثل هذه الحالات - أن توفّر غطاء الأمان الوهميّ. فالموت هو أن ترى الموت.

أريد رائحة القهوة. أريد خمس دقائق. أريد هدنة لمدة خمس دقائق من أجل القهوة. لم يعد لي من طلب شخصي غير إعداد فنجان القهوة. بهذا الهوس حدَّدت مهمتي وهدفي. توثبت حواسي كلُّها في نداء واحد واشرأبّت عطشى نحو غاية واحدة: القهوة.

والقهوة، لمن أدمنها مثلي، هي مفتاحُ النهار.

والقهوة، لمن يعرفها مثلي، هي أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك على طبق، لأن حامل الطبق هو حامل الكلام، والقهوة الأولى يفسدها الكلام الأوَّل لأنها عذراء الصباح الصامت. الفجرُ، أعني فجري، نقيضُ الكلام.

ورائحة القهوة تتشرّب الأصوات، ولو كانت تحيةً رقيقة مثل «صباح الخير»، وتفسد . .

لذا، فإن القهوة هي هذا الصمتُ الصباحي، الباكر، المتأني، والوحيد الذي تقف فيه، وحدك، مع ماء تختاره بكسل وعزلة، في سلام مبتكر مع النفس والأشياء، وتسكبه على مهل وعلى مهل في إناء نحاسيّ صغير داكن وسريّ اللمعان، أصفر مائل إلى البنيّ، ثم تضعه على نار خفيفة. . آه لو كانت نار الحطب. .

ابتعدْ قليلاً عن النار الخفيفة، لتطلّ على شارع ينهض للبحث عن خبزه منذ تورط القردُ بالنزول عن الشجرة وبالسير على قدمين، شارع محمول على عربات الخضار والفواكه وأصوات الباعة المتميّزة بركاكة المدائح وتحويل السلعة إلى نعت للسعر، واستنشق هواء قادماً من برودة الليل، ثم عُدْ إلى النار الخفيفة ـ آه لو كانت نار الحطب ـ وراقب بمودة وتؤدة علاقة العنصرين: النار التي تتلوّن بالأخضر والأزرق، والماء الذي يتجعّد ويتنفسُ حبيبات صغيرة بيضاء تتحوّل إلى جلد ناعم، ثم تكبر. . تكبَر على مهل لتنتفخ فقاعاتٍ تتسع وتتسع بوتيرة أسرع وتنكسر، تنتفخ وتنكسر عطشى لالتهام ملعقتين من السُكّر الخشن الذي ما ان يداخلها حتى تهدأ بعد فحيح شحيح، لتعود بعد هنيهة إلى صراخ الدوائر المشرئبة إلى مادة أخرى هي البُنّ الصارخ، ديكاً من الرائحة والذكورة الشرقية. .

أبعد الإناء عن النار الخفيفة لتجري حوار اليد الطاهرة من رائحة التبغ والحبر مع أولى إبداعاتها، مع إبداع أوّل سيحدّد لك، منذ هذه الهنيهة، مذاق نهارك وقوس حَظّك. سيحدّد لك إن كان عليك أن تعمل أم تتجنب العلاقة مع أحد طيلة هذا اليوم. فإن ما سينتج عن هذه الحركة الأولى وعن إيقاعها وعما يحركها من عالم النوم الناهض من اليوم السابق، وعما يكشف من غموض نفسك، سيكون هوية يومك الجديد.

لأن القهـوة، فنجـان القهـوة الأول، هي مرآة اليـد. واليدُ التي تصنع القهـوة تُشيـع نوعيـة النفس التي تحركها. وهكذا، فالقهوة هي القراءة العلنية لكتاب النفس المفتوح. . والساحرة الكاشفة لما يحمله النهار من أسرار.

* * *

ما زال الفجـر الـرصاصيّ يتقدم من جهة البحر على أصوات لم أعرفها من قبـل. البحـرُ برمتـه يُحْشَـىٰ في قذائف طائشة. البحر يبدل طبيعته البحرية ويتمعدن. أللموت كُلُّ هذه الأسماء؟ قلنا: سنخرج. فلماذا ينصب هذا المطر الأحمـر ـ الأسـود ـ الرمادي على من سيخرج وعلى من سيبقى من بشر وشجر وحجـر؟ . قلنـا: سنخـرج. قالـوا: من البحـر. قلنـا: من البحـر. فلماذا يسلحـون المـوج والـزبـد بهذه المدافع؟ ألكي نعجِّل الخطى نحو البحر؟ . . عليهم أن يفكـوا الحصـار عن البحـر أولاً. . عليهم أن يخلوا الطـريق الأخـير لخيـط دمنـا الأخـير. وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك. . فلن نخرج. إذن، ساعدٌ القهوة .

* * *

صحت عصـافـيرُ الجيران في الســادســة صباحاً. تابعت تقاليد الغناء المحـايـد منـذ وجـدت نفسها، وحيدة، مع بدايات الضوءِ. لمن تغني في زحام هذه الصواريخ؟ تغنّي لتشفي طبيعتها من ليل سابق، تُغَنّي لها لا لنا. هل كنا نعـرف ذلـك فيـما مضى؟ لقـد شقّت الطيور فضاءها الخاص في دخان المدينة المحـترقـة. كانت سهام الصوت المتعرجة تلتفّ على القنابل وتشير إلى أرضٍ سالمـة في الفضـاء. للقاتل أن يقتل. للمقاتل أن يقاتل. وللعصفور أن يُغني.

ولكنّي أكفُّ عن طلب الكنـــايــة، أكفُّ تماماً عن التأويـل، لأن من طبيعـة الحـروب أن تُحَقِّـر الرموز، وتعود بعلاقات البشر والمكان والعناصر والوقت إلى خاماتها الأولى، لنفرح بماء يتدفق من ماسورة مكسورة على طريق، لأن الماء هنا يتقدم منّا معجزة . .

من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ للماء لون يتفتّح في انفتاح العطش. للماء لون أصوات العصافير، الدوري بخاصة، العصافير التي لا تكترث بهذه الحرب القادمة من البحر ما دام فضاؤها سالماً. وللماء طعم الماء، ورائحةٌ هي رائحة الهواء القادم، بعد الظهيرة، من حقل يتموج بسنابل القمح الممتلئة في امتدادٍ متقطّع الضوء كبُقَع الضوء المخطوفة التي يتركها وراء توتُّرُ جناح الدوري الصغير وهو يطير طيراناً واطئاً على حقل، وليس كل ما يطير طائرة. ولعلَّ أسوأ الكلمات العربية هو أن الطائرة تأنيث «الطائر». الطيور تواصل غناءها وتثبِّتُ أصواتها وسط هدير المدافع البحرية. ومن قال إن الماء لا طعم له ولا لون ولا رائحة. ومن قال إن هذه الطائرة هي تأنيث هذا الطائر؟.

ولكن العصافير تصمت فجأة. تكفُّ عن الكلام وعن التحليق الروتيني في هواء الفجر منذ هَبَّت عاصفةُ الحديد الطائر. أمِنْ هديرها الفولاذي سكتت، أم من تشابُهٍ غير متعادل في الشكل والاسم: جناحان من حديد وفضّة في مقابل جناحين من ريش. حيزوم من حديد وكهرباء في مقابل منقار من نشيد. حمولة من صواريخ في مقابل حبة قمح وقشة. توقفت العصافير عن الغناء، واكترثت بالحرب، لأن أرض سمائها لم تعد سالمة . .

* * *

السماء تنخفض، كأنها سقف اسمنتي يقع. البحر يتحوّل إلى يابسة ويقترب. السماء والبحر من مادّة واحدة. البحر والسماء يضيّقان عليَّ الخناق. أدرتُ مفتاح الراديو لأعرف أخبار السماء. لم أسمع شيئاً. تجمّد الوقت. جلس عليَّ ليخنقني. مَرَّتْ الطائرات من بين أصابعي، اخترقت رئتي. كيف أصل إلى رائحةِ القهوة. كيف أموت يابساً بلا رائحة القهوة، لا أريد.. لا أريد. فأين إرادتي؟

وَقَفَتْ هناك، على الطرف الثاني من الشارع، يوم أطلقنا النداء المضاد لتزحف الخرافة علينا من الجنوب. يوم كوّر اللحم البشري عضلة الروح وصاح: لن يمروا.. ولن نخرج. اشتبك اللحم مع الحديد وتغلّب على علم الحساب العسير، فتوقّف الغزاة على السور. هنالك وقت لدفن الموتى، وهنالك وقت للسلاح، وهناك وقت ليمرَّ الوقت على هوانا.. لتطول البطولة، فنحن، نحن أصحابُ الوقت..

كان الخبز يصعد من التراب. وكان الماء ينبجس من الصخر. كانت صواريخهم تحفر لنا آبار الماء، وكانت لغة قتلهم تغرينا بالنشيد: لن نخرج. وكنا نرى وجوهنا على شاشة الآخرين تغلي بالوعد العظيم وتخترق الحصار بشارات نصر لا تنكسر. لن نفقد شيئاً منذ الآن، ما دامت بيروت هنا، وما دمنا هنا في بيروت وسط هذا البحر، على بوابة هذه الصحراء أسماء لوطن مختلف، وعودة المعاني إلى مفرداتها. هنا خيمة للتائهة من المعاني، والضالّة من الألفاظ، ولشتات الضوء اليتيم المطرود من الوسط.

.. فهل عرف هؤلاء الفتية المدججون بجهلٍ خلّاق لموازين القوى، وبمطالع أغنيات سابقة، وبقذائف يدوية، وزجاجات جعة ساخنة، وبشهوات فتيات في ملجأ، وبقصاصات هوية ممزقة، وبرغبات واضحة في الانتقام من آباء حكماء، وبجنون الخلاص من شيخوخة الفكرة، وبما لا يدرون من رياضة الموت النشيط.. هل عرفوا أنهم يصححون بجراحهم وطيشهم المبدع حبر اللغة التي ساست شرق المتوسط كُلّه في اتجاه غرب لا

يطلب من العبودية غير تحسين شروط التحاقها، منذ حصار عكّا في العصور الوسطى؟ حتى حصار بيروت المُكَلَّف بالانتقام من كل التاريخ في العصور الوسطى؟

وهل عرفوا حين انصرفوا إلى محاصرة الحصار، أنهم ينوبون عن الأسطورة في انتشال الواقع من الخارق إلى البسيط ليرشدوا قارىء الرمل المضلَّل إلى أسرار نسيج البطولة المكونة من البسيط إلى البسيط؟ كأن يُمْتَحَن رجل برجولته، وتمتحن أنثى بأنوثتها، وكأن يكون للكرامة قوة الاختيار بين الدفاع عنها أو الانتحار، وكأن لا يرضى الفارس باشتراط فروسيته الذاتية، الأخلاقية والجسدية، بعودة عصر الفروسية الرسمية.. وأن يشق بنفسه، وحيداً، هذا الفضاء المتطاول فيصوِّب مساراً لما فيه من غموض الحافز. وكأن تشقَّ حفنة من البشر عصا الطاعة على المألوف كي لا يتساوى هذا الشعب، هذا الشعب المخلوق من مزاج النار العنيدة، مع قطعان الغنم التي يريد أن يسوسها راعي القمح وراعي الخراف معاً عبر سياج التواطؤ.

لن يمروا على حياتنا. فليمروا، إن استطاعوا أن يمروا، على ما تلفظه الروحُ من جثث.

فأين إرادتي؟.

وقفتُ هناك، على الرصيف الثاني من الصوت الجماعي. أما الآن، فلا أريد أكثر من رائحة القهوة. خجلت. خجلت من خوفي وممن يدافعون عن رائحة البلاد البعيدة، الرائحة التي لم يشموها لأنهم لم يولدوا فيها. وُلدوا منها بعيداً عنها. وتعلّموها بلا انقطاع وبلا كلل أو ملل. تعلموها من ذاكرة مسلطة ومن مطاردة ملحة:

لستم من هنا ـ قيل لهم هناك.

ولستم من هنا ـ قيل لهم هنا.

وبين «هنا» و«هناك» شدُّوا أجسادهم قوساً يتوتّر، حتى اتخذ الموت فيهم هذه الصيغةَ الاحتفالية. لقد أُخرج آباؤهم من هناك ليحلوا ضيوفاً على هنا، ضيوفاً مؤقتين، من أجل إخلاء ساحات الوطن من المدنيين، ليتسنى للجيوش النظامية تطهير أرض العرب وشرفهم من العار الدنس: «أخي جاوز الظالمون المدى، فحق الجهاد وحقَّ الفدا.. طلعنا عليهم طلوع المنون، فكانوا هباء وكانوا سدى»، وبقدر ما كانت تلك الأغاني تطارد فلول الغزاة وتحرِّر الأرض سطراً سطراً، كان هؤلاء، هنا، يولدون بلا مهد، وكيفما اتفق، على حصير أو في سلَّة من قصب، أو على أوراق الموز، يولدون كيفما اتفق بلا شهادة ميلاد وبلا سجل أسماء، بلا فرح وبلا ميلاد، كانوا أعباء على أهلهم وعلى جيران الخيمة، وباختصار: كانوا ولادة زائدة، كانوا بلا هوية.

وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه. عادت الجيوش النظامية. وبقي هؤلاء يولدون بلا سبب. ويكبرون بلا سبب، ويتذكرون بلا سبب، ويحاصرون بلا سبب. جميعهم يعرف القصة، شديدة الشبه بحادثة سير كونية وبواقعة طبيعية. ولكنهم قرأوا كثيراً في كتاب أجسادهم وأكواخهم، قرأوا تمييزهم وقرأوا الخطاب القومي وقرأوا صادرات وكالة الغوث وقرأوا سياط الشرطة. وظلوا يكبرون ويزيدون عن حزام المخيَّم وعن مراكز الاعتقال. وقرأوا تاريخ الحصون والقلاع التي وقَّعها الغزاة لتخليد أسمائهم على أرض ليست لهم، ولتزوير هوية الحجارة والبرتقال على سبيل المثال. أليس التاريخ قابلاً للرشوة؟ وإلاَّ، فلماذا يحمل المكان، البحيرات والجبال والمدن، أسماء قادةٍ عسكريين لا لشيء إلاَّ لأن أولئك القادة قد تنفسوا انطباعاً أولياً لدى المشاهدة، فتحولت كلمات الانطباع إلى أسماء نتناقلها حتى الآن؟ أو.. هريد - ما أجملها - هكذا قال قائد روماني حين رأى البحيرة في مقدونيا، فصار هذا الدهش هو اسمها. وقس على ذلك مئات الأسماء التي نشير بها إلى أمكنة أشار إليها قبلنا عسكري منتصر، وصار من الصعب فكُّ الهوية عن

هزيمتها. قلوع وحصون هي محاولات لحماية اسم لا يثق بخلوده من النسيان. حجارة مضادة للنسيان، حروب عكس النسيان. لا أحد يريد أن يَنسى. وبشكل أدق: لا أحد يريد أن يُنسى. وبشكل، سلمي: ينجبون الأطفال ليحملوا أسماءهم، ليحملوا عنهم عبء الاسم أو مجده. إنه تاريخ طويل من عملية البحث عن توقيع على زمان أو مكان، ومن حلٍّ عقدة الاسم في مواجهة قوافل النسيان الطويلة.

فلماذا يطالب هؤلاء الذين ألقت بهم أمواج النسيان على ساحل بيروت أن يشذوا عن قاعدة الطبيعة البشرية؟ لم يُطالبون بهذا القدر من النسيان؟ ومن هو القادر على تركيب ذاكرة جديدة لهم لا تحتوى لها غير ظل مكسور لحياةٍ بعيدة في وعاء من صفيح صارخ؟

أهناك ما يكفي من النسيان كي ينسوا؟

ومن سيساعدهم على النسيان في هذا القهر الذي لا يتوقف عن تذكيرهم باغترابهم عن المكان والمجتمع؟ من يرضى بهم مواطنين؟ من يحميهم من سياط الملاحقة والتمييز: لستم من هنا!

يستعرضون الهوية المرفوعة للتدليل على خطر الدخول وخطر الخروج، لمحاصرة الأوبئة، ويراقبون براعة استخدامها رافعة قومية، فهؤلاء المنسيون، المطرودون من النسيج الاجتماعي الداخلي، المنبوذون، المحرومون من حقّ العمل والمساواة، يطالبون في الوقت ذاته بأن يصفقوا لقمعهم لأنه يُوفر لهم نعمة الذاكرة. وهكذا يُدْفَعُ المطالب بالنسيان أنه إنسان إلى قبول استثنائه من الحقوق ليتدرَّب على التحرُّر من داء نسيان الوطن. عليه أن يُصاب بالسلّ كيلا ينسى أن له رئة، وعليه أن ينام في العراء كيلا ينسى أن له سماء أُخرى. وعليه أن يعمل خادماً كيلا ينسى أن له مهمة وطنية. ويمنع من التوطين كيلا ينسى فلسطين.

وباختصار، عليه أن يكون «آخر» أخيه العربي لأنه منذور للتحرير. .

حسناً. . حسناً. لقد عرف واجبه: هويتي - بندقيتي، فلماذا يكيلون له تهماً لا تُحصى: إثارة الشغب، الإخلال بأصول الضيافة، التوريط، نشر عدوى السلاح؟ حين استكان أخرجوا روحه للكلاب الضالة، وحين تحرك في اتجاه الوطن أخرجوا جسده للكلاب الضالّة. ولكن المثقفين القادرين على ارتداء أحدث الأزياء النظرية، اقنعوه بأنه بديل السائد، وحين انقضّ عليه السائد، طالبوه بالنقد الذاتي لأنه أفرط في الوطنية، أفرط إلى درجة الخروج عن حظيرة السائد! الظروف ليست ناضجة. الظروف ليست ناضجة.

وكان عليه أن ينتظر. ما العمل. . ما العمل؟ الثرثرة في مقاهي بيروت. لقد ثرثر حتى قيل له إن بيروت قد أفسدته. وامتشقت سيدات المجتمع البنادق الرشاشة، المحاطة بوسوسة المجوهرات، ليخطبن في خفلات الدفاع عن وطنية «المجدرة». وحين خجل وقال ما يعني أن الوطن ليس هذا الطعام، وتناول السلاح يستخدمه خارج الحفلة، على الحدود، قالوا له: هذا تجاوز. وحين استخدم السلاح في معارك الدفاع عن النفس، في الداخل، ضد مندوبي الصهيونية المحليين قيل له: هذا تدخل في الشؤون الطائفية. ما العمل؟ إذن، ما العمل لينهي عملية النقد الذاتي سوى الاعتذار عن وجود لم يوجد بعد. لستَ إلى هناك. ولستَ من هنا. ومن بين هذين النفيين وُلد هذا الجيل المدافع عن وغاء جسدي للروح، علّق عليه رائحة البلاد التي لا يعرفها. لقد قرأ ما قرأ، ورأى ما رأى، ولم يصدق أن الهزيمة حتمية وتبع تلك الرائحة. . .

* * *

منهم أخجل، دون أن أعرف أني أخجل منهم. الغامض يتراكم على الغامض ليحتك ويقدح الوضوح. وفي وسع الغزاة أن يفعلوا كُلَّ شيء، في وسعهم أن يسلطوا البحر والجو والبرَّ عليّ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقتلعوا مني رائحة القهوة. سأصنع قهوتي الآن. سأشرب القهوة الآن. سأمتلىء برائحة القهوة الآن، لأتميز عن خروف، على الأقل، لأعيش يوماً آخر، أو أموت محاطاً برائحة القهوة..

.. تُبعد الإناء عن النار الخفيفة لتجري اليدُ أولى إبداعاتها. ولا تكترث بالصواريخ والقذائف والطائرات. فتلك إرادتي: سأذيع رائحة القهوة لأمتلك فجري. لا تنظر إلى الجبل الذي يبصق كتلة نارية في اتجاه يدك. ولكنك لا تستطيع أن تنسى أنهم يرقصون هناك، يرقصون من النشوة. كانت سيدات القرنفل، في صحف البارحة، يرتمين على دبابات الغزاة في الأشرفية. كان النصف الأعلى من نهودهن، والنصف السفلي من أفخاذهن عارياً من الصيف ومن المتعة، ومعداً جيداً جيداً لاستقبال المخلصين. قبِّلني يا شلومو، قبلني على فمي، ما اسمك يا حبيبي لأناديك باسمك يا حبيبي، شلومو كم انْتظرتُكَ شغافُ قلبي. أُدخل، يا شلومو، ادخل رويداً رويداً أو دفعة واحدة إلى بيتي لأحسَّ فيك القوة. كم أُحبُّ القوة يا حبيبي، واقصفوهم يا حبيبي، إذبحوهم، واقتلوهم بكُلِ ما فينا من انتظار. لتحمك سيدة لبنان يا سيد شلومو. اقصفوهم ريثما أُعدُّ لك كأس العرق والغداء يا حبيبي. بعد كم ساعة تقضون عليهم، بعد كم ساعة. لقد طالت العملية، يا شلومو، طالت، فلماذا أنتم بطيئون يا حبيبي. شهران، ما بالكم لا تتقدمون. ولكن رائحتك كريهة، يا شلومو، لا بأس. هذا من الصيف والعرق. سأغسلك بماء الفل يا حبيبي، لماذا تبول في الشارع؟ هل تتكلَّم الفرنسية؟ لا؟ أين وُلدت؟ في تعز؟ أين تعز هذه؟ في اليمن؟ لا بأس لا بأس، كنت أظنُّك شيئاً آخر، ما عليك يا شلوموا، أقصف من أجلي هناك.. هناك.

ملعقة واحدة من البُنّ المكهرب بالهال تُرْسَى، ببطء، على تجاعيد الماء الساخن، تحركها تحريكاً بطيئاً بالملعقة، بشكل دائري في البداية، ثم من فوق إلى تحت. تضيف إليها الملعقة الثانية، تحركها من فوق إلى تحت ثم تحركها تحريكاً دائرياً من الشمال إلى اليمين، ثم تسكب عليها الملعقة الثالثة. بين الملعقة والأخرى أبعد الإناء عن النار ثم أعده إلى النار. بعد ذلك «لَقِّم» القهوة أي املأ الملعقة بالبن الذائب وارفعها إلى أعلى ثم أعدها عدة مرات إلى أسفل، إلى أن يعيد الماء غليانه وتبقى كتلة من البن ذي اللون الأشقر على سطح الماء، تتموَّج وتتأهب للغرق. لا تدعها تغرق. أطفىء النار ولا تكترث بالصواريخ. خذ القهوة إلى الممرِّ الضيِّق. صبَّها بحنان وافتنان في فنجان أبيض، فالفناجين داكنة اللون تفسد حرية القهوة. راقب خطوط البخار وخيمة الرائحة المتصاعدة. أشعل سيجارتك الآن، السيجارة الأولى المصنوعة من أجل هذا الفنجان، السيجارة ذات المذاق الكوني التي لا يعادلها مذاق آخر غير مذاق السيجارة التي تتبع عملية الحب، بينما المرأة تدخّن آخر العرق وخفوت الصوت..

ها أنذا أُولد. امتلأت عروقي بمخدرها المنبّه، بعدما التقت بينبوع حياتها، الكافيين والنيكوتين وطقس لقائهما المخلوق من يدي. أتساءل: كيف تكتب يدٌ لا تبدع القهوة؟ كم قال لي أطباء القلب، وهم يدخنون: لا تدخّن ولا تشرب القهوة. وكم مازحتهم: الحمار لا يدخن، ولا يشرب القهوة، ولا يكتب.

أعرف قهوتي، وقهوة أمي، وقهوة أصدقائي. أعرفها من بعيد وأعرف الفوارق بينها. لا قهوة تشبه قهوة أُخرى. ودفاعي عن القهوة هو دفاع عن خصوصية الفارق. ليس هنالك مذاق اسمه مذاق القهوة، فالقهوة ليست مفهوماً وليست مادّة واحدة، وليست مطلقاً. لكُلٍّ شخص قهوته الخاصة، الخاصة إلى حدّ أقيس معه درجة ذوق الشخص وأناقته النفسية بمذاق قهوته.

ثمة قهوة لها مذاق الكزبرة. وذلك يعني أن مطبخ السيدة ليس مُرَتَّباً. وثمة قهوة لها مذاق عصير الخروب. ذلك يعني أن صاحب البيت بخيل. وثمة قهوة لها رائحةُ العطر. ذلك يعني أن السيدة شديدة الاهتمام بمظاهر الأشياء. وثمة قهوة لها ملمس الطحلب في الفم ـ ذلك يعني أن صاحبها يساريّ طفولي. وثمة قهوة لها مذاق القِدم من فرط ما تألب البن في الماء الساخن، ذلك يعني أن صاحبها يميني متطرف. وثمة قهوة لها مذاق الهال الطاغي ـ ذلك يعني أن السيدة محدثة النعمة..

لا قهوة تشبه قهوة أخرى. لكل بيت قهوته، ولكُلِّ يد قهوتها، لأنه لا نفس تشبه نفساً أخرى. وأنا أعرف القهوة من بعيد: تسير في خط مستقيم، في البداية، ثم تتعرج وتتلوى وتتأوّد، وتتأوّه وتلتفُّ على سفوح ومنحدرات،

تتشبَّث بسنديانة أو بلوطة، وتتغلَّب لتهبط الوادي وتلتفت إلى ما وراء وتتفتّت حنيناً إلى صعود الجبل وتصعد حين تتشتت في خيوط الناي الراحل إلى بيتها الأوَّل..

رائحة القهوة عودة وإعادة إلى الشيء الأول، لأنها تتحدَّر من سلالة المكان الأول، هي رحلة بدأت من آلاف السنين وما زالت تعود. القهوةُ مكان. القهوةُ مسامٌ تُسَرِّب الداخل إلى الخارج، وانفصالٌ يُوَحِّد ما لا يتوحَّدُ إلا فيها هي رائحة القهوة. هي ضدُّ الفطام. ثدي يُرضِع الرجال بعيداً. صباحٌ مولود من مذاق مُرّ، حَليبُ الرجولة. والقهوة جغرافيا..

* * *

من تلك الناهضةُ من منامي؟

هل هي حقاً كانت تخاطبني قبل الفجر، أم كنتُ أهذي وأواصل المنام صاحياً.

لم نلتق غير مرتين. في المرة الأولى حفظت اسمها. وفي المرة الثالثة لم نلتق. فلماذا تناديني الآن من حلم كنتُ أنام فيه علّى ركبتها. لم أقل لها في المرة الأولى: أحبك. ولم تقل لي في المرة الثانية: أحبك. ولم نشرب القهوة معاً..

* * *

واعتدتُ أن أحصي عدد السوس في صحن حساء العدس، الطبق اليومي في السجون - واعتدت أن أتغلّب على الاشمئزاز، لأنّ الشهية تتكيّف، ولأن الجوع أقوى من الشهية. ولكنني لم أتكيف أبداً مع غياب القهوة الصباحية ومع تناول غسيل الشاي. ألهذا لم أتعايش مع ظروف السجن. سألتني صديقةٌ بعد خروجي من السجن الأول: هل استمتعت؟ قلت: لا، لأنهم لا يقدمون القهوة. قالت: هذا شيء فظيع. وأضافت: ولكنني لا أشربُ القهوة. قلت: لا أعرف سيدات كثيرات مهووسات بصباح القهوة. الرجل هو الذي يفتتح نهاره بالقهوة، أما المرأة فانها تُفَضِّل المكياج!

ليس ذلك ما آلمني. لقد تمكن أحد زملائي السجناء من إحضار فنجان من القهوة لي، ذات صباح، تلقّفتُه بشبق ومنحتُ نفسي وقتاً للتأمُّل، مما دفع زميلاً آخر إلى تصويب نظرة استعاطف نحو الفنجان، تجاهلتُها لأتوحَّد مع ملكيتي، تجاهلتُها وتلذذت برشف القهوة بسادية أيقظتْ فيَّ إحساساً بالإثم فيما بعد. كان ذلك قبل عشرين عاماً، وما زالت تلك النظرةُ المتوسلة تلاحقني إلى الآن داعيةً إيَّاي إلى إعادة النظر المستمرة في نفسي وإلى تهذيب سلوكي، لأن العطاء وتقاسم الأشياء في السجن هو معيار صدق العطاء. لم أتخلَّص من عقدة الذنب بما أغدقت هو معيار صدق العطاء. لم أتخلَّص من عقدة الذنب بما أغدقتُ عليه من أنصاف السجائر في محاولة لرشوة توازني النفسي. ما أشدَّ أنانيتي! لقد حرمت زميلاً في السجن من نصف فنجان من القهوة، مما دفع الأقدار إلى معاقبتي، بعد أسبوع، يوم جاءت أمي لزيارتي ومعها إبريق من القهوة دلقه الحارسُ على العشب..

والقهـوة لا تُشرب على عجـل. القهـوةُ أختُ الـوقت. تُحْتَسى على مهـل. . على مهـل. القهـوةُ صوت المـذاق، صوت للرائحـة. القهـوة تأمُّل وتغلغـل في النفس وفي الـذكـريات. والقهوة عادة تلازمها بعد السيجارة عادة أخرى هي . . الجريدة.

أين الجـريـدة؟ السـاعة السادسة صباحاً. وأنا في عين الجحيم. ولكن الخبر هو ما يُقرأ لا ما يُسمع. والواقع، قبل تسجيل الواقع، ليس واقعاً تماماً. أعرف باحثاً في الشؤون الاسرائيلية لا يكفُّ عن تكذيب «الشائعات» القائلة إن بيروت محاصرة، لأنه لا يقرأ الحقيقة إلا إذا كانت مكتوبة باللغة العبرية. وبمـا أن الصحف الاسـرائيليـة لم تصـل إليـه، فانـه لا يعـترف بأنَّ بيروت محاصرة!. ليس هذا ما يُصيبني من حماقة، فالجريدة الصباحية ادمان، أين الجريدة؟.

تصـاعـدت هستـيريا الطائرات. لقد جُنَّت السماء. جُنَّت تماماً. يُنذر هذا الفجـر بأن هذا اليـوم هو آخـر أيـام الخليقـة. فأين يضـربـون؟ أين لا يضـربـون؟ وهـل تتسـع منطقـةُ المطـار لكُـلِّ هذه القذائف القادرة على قَتْل بحـر؟. أفتـح الـراديـو فأضطـر للاستماع إلى الاعلانات التجارية السعيدة: ساعة سيتزن لضبط الوقت. سجائر ميريت، نكهة أكثر ونيكوتين أقل. تعال إلى مارلبـورو تعـال إلى حيث المتعـة. ميّـة الصحـة. صحـة صحة من جبل عالي. ولكن أين الماء؟ غنج متزايد من مذيعات مونت كارلو الخارجات للتو من الحمّام أو غرف النـوم المثيرة. قصفٌ شديد على بيروت. قصف شديد على بيروت؟ أهذا هو الخبر كأنه نبأ عن يوم عادي من أيام حرب عادية، عادية في نشـرة الأخبـار. أحـوِّل إبـرة الـراديـو إلى إذاعـة لندن، الفتور المميت ذاته في أصوات مذيعين يدخنون الغليون على مسمع من المستمعين. أصوات منقولة على موجـة قصـيرة مكـبرة إلى موجـة متـوسطـة تحوِّلها إلى كاريكاتور صوتي خبيث: ويقول مراسلنا إنه يبدو للمراقبين الحذرين أن ما يبدو مما يتضح عندما يتمكن المتحـدث لولا صعـوبة الاتصال بالوقائع لعلَّ في الأمر ما يدل على أن

كلا المتحــاربـين بحاول عسى ولا سيــما ناهيـك عن غمـوض ما قد يسفـر عن طائـرات مجهـولة أسماء الطيارين تُحلِّق إذا أردنا الدقة حيث قد يتأكد أن بعض الناس يظهر في زيّ حسن. لغة عربية سليمة المعلومات تنتهي بأغنية ذات لغة عربيـة سليمـة العـواطف لمحمد عبد الوهاب: يا تحبيني يا تقوللي أروح لك يا تقوللّي أروح منك فين.

أصوات متشابهـةُ الـرتـابة، رمل يصف بحراً، أصوات فصيحة ونزيهة تصف المـوت كما تصف الأحـوال الجـويـة، وكـما لا تصف سباق الخيـل والدراجات. عَمَّ أبحث؟ أفتح الباب عدة مرات ولا أعثر على الجريدة. لماذا أطلب الجريدة والبناياتُ تتساقط من الجهات كُلِّها. ألا تكفيني هذه القراءة؟

ليس ذلـك تماماً. فالبـاحث عن الجريدة وسط هذا الجحيم هاربٌ من المـوت وحيـداً إلى المنوت الجـماعي، باحث عن عينين إنسانيتين، عن صمت مشـترك، وعن كلام متبـادل، باحث عن مشـاركـة ما في المـوت، عن شاهـد يشهـد، عن شاهــد على جثــة، عن مُبْلغٍ عن سقـوط حصـان، عن لغـة للصمت وللكـلام، عن انتظـار أقـلَّ ضجـراً لموت تأكّـد. فإن ما يقـولـه هذا الفـولاذ، هذه الـوحـوش الفـولاذيـة، هو أن أحـداً لن يرى السـكينـة. . ولن يحصي قتلانا. .

كنتُ أكذب على نفسي، فليست فيَّ حاجة إلى البحث عن وصف ما هو حولي وفي داخلي الدالف. حقيقةُ الأمر هي أنني كنتُ خائفاً من الوقوع بين الأنقـاض، فريسـةَ أنينٍ لا يصل. كان ذلك مؤلماً، مؤلماً إلى حدّ التماهي مع الحـادثـة وقـد حدثت. أنـا الآن هنـاك بين الأنقـاض. أحسُّ بوجـع الحيوان المهـروس فيَّ وأصـرخ من وجعي ولا يسمعني أحد. كان ذلك «الألم - الشبح» القــادم من اتجـاه معـاكس، مما قد يحدث، بعض الـذين يصـابـون بسـاقهم يواصلون الاحسـاس بالـوجـع في الساق حتى بعد بترها لسنين. إنهم يمدون أيـديهم لتحسس موضـع الوجع في ساق لم يعد لها وجود. . وقد يلاحقهم هذا الـوجـع الـوهمي، الـوجع الشبح إلى آخر العمر، أما أنا، فأشعر بوجع شديد

جرَّاء إصابة لم تحدث. . لقد طُحِنَتْ ساقاي تحت الأنقاض.

وهـذه ظنـوني: قد لا يقتلني الصـاروخ بشكل خاطف دون أن أشعر. فقد ينهار عليَّ حائط على مهل على مهل في عذاب لا ينتهي واستغاثة لا تبلّغ مصيري إلى أحد. قد يطحن ساقي أو ذراعي أو جمجمتي أو قد يربض على صدري، وأبقى حيّاً عدة أيام لا وقت فيها لأحد للبحث عن بقايا كائن. قد يختلط لحمي بالإسمنت والحـديـد والتراب فلا يَدُلُّ شيء عليّ. وقـد ينغـرز زجـاج نظـارتي في عيني فأصـاب بالعمى. وقـد يتغلغـل عمود من الحديد في خاصرتي. وقد أنسى في زحام اللحم البشري المعوس المفقود بين الأنقاض.

ولكن، لماذا أهتم بمصير جثتي وعنوانها إلى هذا الحد؟ لا أعرف. أريد جنازة حسنـة التنظيم، يضعـون فيهـا الجثـمان السليم، لا المشوه، في تابوت خشبي ملفـوف بعلمٍ واضـح الألـوان الأربعة، ولو كانت مقتبسة من بين شعر لا تدلّ ألفـاظـه على معانيه، محمول على أكتاف أصدقائي، وأصدقائي ـ الأعداء. وأريد أكاليل من الورد الأحمر والورد الأصفر. لا أريد اللون الوردي الرخيص ولا أريـد البنفسج لأنـه يذيـع رائحـة الموت. وأريد مذيعاً قليل الثرثرة، قليل البحـة، قادراً على ادّعـاء حزن مقنع، يتناوب مع أشرطة تحمل صوتي بعض الكـلام. أريـد جنـازة هادئـة، واضحـة، وكبيرة ليكون الوداع جميلاً وعكس اللقـاء. فما أجمـل حظ المـوتى الجدد، في اليوم الأول من الوداع، حين يتبارى المـودعـون في مدائحهم. فرسـان ليومٍ واحد، محبوبون ليومٍ واحد، أبرياء ليوم واحـد. . لا نميمـة ولا شتيمـة ولا حسـد. حسنـاً، وأنا بلا زوجة وبلا ولد. فذلـك يوفّـر على بعض الأصدقاء جهد التمثيل الطويل لدورٍ حزين لا ينتهي إلّا بحنوّ الأرملة على المعزّي. ذلك يوفر على الولد مذلّة الوقوف على أبواب المؤسسـات ذات البيـر وقراطية البدوية. حَسَنٌ أني وحيد. . وحيد. . وحيد، لذلـك ستكـون جنـازتي مجانية وبلا حساب مجاملة، ينصرف بعدها المشيعون إلى شؤونهم اليومية. أريد جنازة وتابوتاً أنيق الصنع أُطلُّ منه، كما يريد توفيق الحكيم أن يطل على المشيعين. . أسترق النظر إلى طريقتهم في الوقوف وفي

المشي وفي التأفف وفي تحويل اللعاب إلى دموع. وأستمع إلى التعليقات الساخرة: كان يحب النساء، وكان يبذخ في اختيار الثياب. وكان سَجّاد بيته يصل إلى الركبتين، وكان له قصر على الساحل الفرنسي اللازوردي وفيلّلا في اسبانيا وحساب سريّ في زيوريخ، وكانت له طائرة سرية خاصة، وخمس سيارات فخمة في مرآب بيته في بيروت. ولا نعرف إذا كان له يخت خاص في اليونان. ولكن في بيته من أصداف البحر ما يكفي لبناء مخيّم. كان يكذب على النساء. مات الشاعر ومات شعره معه. ماذا يبقى منه؟ لقد انتهت مرحلته وانتهينا من خرافته. أخذ شعره معه ورحل. كان طويل الأنف واللسان..

وسأستمع إلى ما هو أقسى عندما تتحرر المخيّلة من كُلِّ شيء. سأبتسم في التابوت، سأبذل جهداً لأن أقول: كفى، سأحاول العودة فلا أستطيع.

* * *

أما أن أموت هنا، فلا. لا أريد الموت تحت الأنقاض. سأدعي لنفسي. أنني ذاهب إلى الشارع للبحث عن الجريدة، فالخوف عار في حُمّى البطولة المتفشية من جميع الناس، من أولئك الذين لا نعرف أسماءهم على خطوط لاشتباك، ومن أولئك البسطاء الذين اختاروا أن يبقوا في بيروت، اختاروا أن يكرسوا أيامهم للبحث عن تنكة ماء وسط مطر القذائف، اختاروا أن يدفعوا لحمهم في صراع مع الحديد المنفجر. البطولة هي هذا الجزء المشطور من بيروت في هذا الصيف الحارق، هي بيروت الغربية. ليس من يموت هو من يموت بالمصادفة. الحيُّ حيّ بالمصادفة، إذ لم يسلم شبر واحد من صاروخ، ولم يسلم موقع خطوة واحدة من انفجار. ولكني لا أريد الموت تحت الأنقاض. أريد الموت في الشارع..

انتشر أمامي، فجأة، الدود الموصوف في إحدى الروايات.. دود يرتب صفوفه وأنواعه وألوانه، بنظام صارم، لالتهام الجثة كأنه يسلخ اللحم كله عن العظام في دقائق. غارة واحدة.. غارتان ولا يبقى منّا غير الهيكل العظمي. دود يأتي من المجهول.. ومن التراب.. ومن الجثة ذاتها. الجثة تأكل نفسها بجيش حسن التنظيم يطلع منها في لحظات. إنها صورة تفرغ الإنسان من بطولته ومن لحمه، وتدفع به في عراء المصير العبثي، في العبث المطلق، في العدم الكامل. صورة تجرِّد الأناشيد من مديح الموت ومن الفرار إلى الفرار. أمِنْ أجل التغلُّب على بشاعة هذه الحيقة، فتح الخيال البشريُّ ـ ساكنُ الجثة.. فضاء لخلاص الروح من هذا العدم؟ أهذا ما يقترحه الدين والشعر من حَلّ؟ ربما.. ربما..

* * *

.. ولأنني أعرف «سمير» منذ الطفولة، لم أذهب إلى غيبوبته في المستشفى. لقد بترت الطائرات ساقيه وذراعه، بقرت بطنه وسملت عينيه، عندما كان يخلي المصابين في ميدان المدينة الرياضية. ماذا تبقى منه؟ أعني ماذا تبقّى من وسامة كانت توقد الجمر تحت ثياب الفتيات؟ كنا معاً في المدرسة الثانوية في كفرياسيف. لم يحضر الدروس كثيراً. كان ساهياً وغائباً، يُؤْثِرُ البحر واصطياد العصافير على الكتب، ولا يشارك في شغب التلاميذ. فيه خُشْنٌ يوسف وخفرٌ بلا تقوى. عينان زرقاوان صافيتان من بحر عكا وأمُّه الحسناء الطباغية. شعر كستنائي، مُجَعَّد، وجبين واسع يطل على ما فوقنا. كان بعيداً بعيداً وقويَّ البنية. ولم نعرف لماذا ابتعد عن المدرسة وعن العائلة وعن الوطن إلى أن اشتعل حرب حزيران. هكذا قالت الصحف الاسرائيلية بعناوين عريضة: إلقاء القبض على فدائي تسلّل عبر الحدود لينسف حيفا.

كان ذلـك عشيـة حرب حزيـران. وكان الإعلام الاسرائيلي منكباً على إعداد الذرائع لإعلان الحرب. لم نصدّق ان «سمير» فدائي فلسطيني، إذ لم يسبق له أن انخرط معنا في نشاط عام، إلاّ بعدما طالعتنا قامته المديدة في الصحف وهو يرسف في الأغـلال. حدَّثني أبـوه، وهـو ابن عمي، كيف كانت الشـرطـة تُسْمِعُهُ ـ خلف جدران الزنزانة ـ أنين «سمير» تحت التعذيب المتواصل. قطيعٌ من الـذئـاب يستفرد بغزال أسير. لقد تحطَّم والده تماماً وهو يستمع إلى الموت البطيء المتصاعد من جسد سمير، المرفَّه المنعم المدلّل الأنيق الوسيم، ولكن أمَّه ذاتَ الجمال الجَهْوريِّ صمت أعصابها وتوازنها النفسي بما أيقظ في أمومتها من حاسَّة الزهـو أمام تحوُّل ابنها إلى رجل يتحدى دولة هزمت دولاً، فرفعت أحـزانهـا إلى كبر يـاء. حكمـوا على «سمـير» بالسجن المؤبَّد. وفي السجن استطـاع أن يُمَثِّـل دور المتعـاون مع إدارة السجن، متحمـلاً إهـانـات زملائه الفـدائيـين، لينفِّـذ خطتـه ويعمـل في مطبـخ السجن، حيث حصل على ما يحتـاجـه من أدوات حادة، وعكف شهـوراً على قطع قضبان الزنزانة، إلى أن حانت ساعة الصفر، وتمكن من تهريب بعض زملائه السجناء. أصرَّ على أن يكـون آخـر النـاجـين، إلى أن انتبه الحراس إلى العملية وانتزعوه من قضبان النـافـذة ليحكمـوا عليـه، مرة أخـرى، بالسجن المؤبـد الثـاني. بعـد محاولة أخـرى، حكم عليـه بالسجن المؤبـد الثالث. وهكذا، كان على «سمير» أن يعيش ثلاثة أعمار أخرى ليتم إطلاق سراحه.

وفي عملية تبادل أسرى خرج «سمير» إلى نور الوطن العربي الكبير، فلم يصـدِّق الفـارق بين الفكـرة وصـورة الفكرة، ولم يصدق التنافر بين الحلم وأداة الحلم، فلجأ إلى مفـاضلة السجنـاء التقليـديـة بين الحـريـة الخـارجيـة الشكليـة وبـين الحـريـةُ الـداخليـة المجازية المنبعثة من تماسك اليقين وسلام النفس والارتبـاط بالخـارج بربـاط المثـال. لقـد ألفنـا شكـوى الخـارجين من حريتهم الـــداخلية إلى حريتنـا المُشـوَّهـة، وألفنـا خيبتهم من كُلّ ما يخدش مخيلتهم عنا وتصوُّرَهُمْ عن الخارج. قال لي «سمير»، حين التقيته بعد عشرين

عاماً في دمشق : أهذا هو الوضع؟ ليس من أجل هذا دخلت. وليس من أجل هذا خرجت. ولكنَّ ما فيـه من وفـاء لارتبـاط الاطـار والفكرة حال دون ذهابه بالخيبة إلى منتهاها. إلى استبدال الإطار والأداة بما هو أكثر توازناً وانسجاماً. كان شديد الخيبة من المؤسسة وشديد الالتحام بها. ليس في وسع رجل مثلي - قال - أن يغيرِّ جلده لا خوفاً من إرهـاب المؤسسـة، بل خوفـاً من انهيار أحد عنـاصـر التوازن. فلأعتبر نفسي - سواء كنت في هذا التنظيم أو ذاك - خادماً لفكـرة فلسطـين وشعبهـا، دون أن أقبـل الانسيـاق في صراع التنظيـمات وفي خداع تبعية بعضهـا، وهي لا تشملني، إلى هذا النظـام أو ذاك. كان يُسيِّج نفسه ويميزها بالجناح المطلق من الفكرة. كان يخشى أن يؤدي أيٌّ تعديل في إطـاره إلى الطعن في صدق تاريخـه وفي حرارة تضحيتـه لأن الاعـتراض - في غيـاب الـوطن والمجتمـع ومـا يبلورانـه من سُلَّم قيم - قابلٌ للشك والتشكيك الشـائعـين في حروب كلام لا تضبطها ضوابط أخلاقية ووطنية. ولم يسفر مثل هذا النـوع من «الحـوار الوطني» إلاّ عن اغتيال، ولم يبرأ من تراشق هذه التهم أحدٌ منا. ثم استقر «سمير» في بيروت، ليواصل أسئلته الجارحة حول الحرية في السجن، والسجن في حريـة قابلة للفسـاد وإلغاء نظام العقوبات، حتى لو تمكن أحـد النـاطقـين باسم هذه الحرية من تدمير بناية على ساكنيها لتصفية حسـاب مع عضـو في التنظيم دون أن يفقـد عضويته في القيادة وحقّه في تمثيل نظـام عربي تمثيـلاً مدوياً في القيادة! . لعلَّ المحاكمة التي تستحقها الثورة هي أنهـا كانت خاليـة، ومـا زالت خاليـة، من تقـاليد محاكمة أعضاء القيادة على جرائمهم المـدويـة. واقتصـرت المحـاكمة على تتبُّع جنايات أخلاقية يرتكبها شهـداء المستقبـل خلال بحثهم عن متعـة عابـرة في سيجـارة حشيش أو امرأة تغوي، قبل أن يتحولوا إلى منصة للخطابة. كان يصعب على «سمير» وعلى أمثـالـه الخـارجـين من السجـون الاسرائيلية أن يدركوا كيف يقفز بعض ممثلي المخابرات على درجات سُلَّم القيادة بذريعة المحافظة على «توازن» تعبر عنه الثـورة في علاقـاتهـا بالدول. هل نحن جامعة الدول العربية؟. لم يتمكن من

إدمان هذه التقاليد المتلبسة لأنه لم ينضج إلى درجة «الواقعية» التي تتطلب استيعابها الأشواط التي قطعها الخطاب السياسي الفلسطيني في علاقته المعقدة بالقاعدة العربية والقمة العربية، حتى وجد هذا الخطاب نفسه أسيرها لا ابنها المدلل، منذ انقسم السؤال الديمقراطي عن السؤال القومي وذهب كل واحد في اتجاه معاكس، فاستمدت «الوحدة الوطنية» أحد مقوماتها من تضامن الحكومات في المنظمة لا مع المنظمة! . . ولكن «سمير» المضرج بالأسئلة عن الحرية في السجن وعن السجن في الحرية، انخرط في موجة تساهل عام جرَفتنا جميعاً إلى شاطىء القدرية.

. . ولأنني أعرفه منذ الطفولة، لم أذهب إليه في المستشفى، مستشفى البربير. لن تعرفه ـ قالوا لي. وإذا كنت تحبه ـ قالوا لي ـ صلِّ له أن يموت، لأن الموت راحتُهُ الوحيدة. . فقد دخل في الكوما. . دخل في الموت حيّاً. .

إذن، لم يُطلق سراحه. لقد لاحقوه حتى بيروت. استبدلوا أحكام السجن المؤبد بالإعدام قصفاً بالطائرات. مات سمير. . مات حَبَقُ العائلة. .

* * *

. . لا أريد أن أموت، مشوَّهاً، بين الأنقاض، أتمنى أن أُقصف على حين غفلة. . في الشارع، أتمنى أن أحترق تماماً. أن أتفحَّم، فلا يعثر دود الرواية إيَّاه على وظيفته الخالدة فيّ، إذ ليس من عادة الدود أن يأكل الفحم.

وهكذا، سأقول لنفسي إنني أبحث عن جريدة. . لأبرر سيري في شارع لا قطة فيه ولا كلب.

لم آبه بما يحدث خارجَ الزجاج. قذائف. صواريخ. بوارج. طائرات. مدفعية. تهبُّ عليَّ كما تهب الرياح. تنزل كما يهطل المطر. تتحرك كما يتحرك الزلزال. لا تستطيع الارادة البشرية أن تفعل حيالها شيئاً كأنه قدر لا يُرد. كُلُّ

ما تمخَّض عنــه الخيـال البشـري من إبـداعـات الشـر الخـارقـة، ومـا بلغتـه التكنـولـوجيا من تقدم، يجري امتحان فاعليتها في أجسادنا اليوم. أيكون هذا اليـوم أطـول يوم في التـاريـخ؟ لا أحـد يغسـل المـوتى، فليغسـل الميت نفسه بنفسه، أعني بدم فاض عن الماء. أجمع ثروتي المائية، واستخدم كل قطرة منها بحـرص فائق. لكـلٍّ قطـرة دور. أكـاد أعُـدُّ قطرات الماء خمسمائة قطرة لغسل الشعـر. ألفـان للجسـد. مائـة للفم. مائـة للحـلاقـة. عشرون لكُلٍّ أذن. خمسون لكُلٍّ إبط.. و..و.. لكُلٍّ قطرة قطعةٌ من الجسد.

ما المـاء؟ من قال إن المـاء لا لون له ولا طعم ولا رائحـة؟ ما المـاء؟.. كيماوياً: يدأ. ياء. وال. اثنان. ألف. أهذا هو كل شيء؟. ولكن، ما هذه النشـوة التي تفتـح الجلد لتـوصلنـا إلى عيدٍ هناك. في أرجاء الجسد وضواحيه فيقترب من طباع الفراش. الماء فرح الحواس وما يحيط بها من هواء. الماء هو الهواء المقطّر الملموس المحسوس المغموس بالضوء. ولهذا حث الأنبياء شعوبهم على حب الماء ﴿ وجلعنا من الماء كل شيء حيّ ﴾. أتذكر رسالة ابن فضلان فأتقـزز من ماء في وعـاء كان يفسـد جيشـاً بأكمله. لقـد قطع عنا ممثلو نفايات الصليبيـين المـاء، بينـما كان صلاح الـدين الأيـوبي يرسل الثلج والفواكه إلى أعـدائـه «لعـل قلوبهم ترق» كما كان يقـول. وأضحك. فجأة من أغنية تقول «الميّـة تروي العطشـان» وأتساءل: كيف عرف المغنّي هذا الاكتشـاف المبهر؟.

وفي تل الـزعـتر كان القتلة يصطـادون الفلسطينيـات على نبـع المـاء، على ماسورة الماء المكسورة، كما يصـطاد الصيادون الغزلان العطاش. الماء القاتل. الماء المخلوط بدم العطشى الـذين غامـروا بحيـاتهم من أجـل كوب ماء. الماء الـذي أشعـل حروب البـدو في الـزمان القديم. الماء الصالح لتحسين شروط التفـاوض لدى من لم يلمس المـاء إنسـانيتهم اليـابسة. الماء الذي حرَّك ملوك العـرب وحمَّلهم مشقـة الاتصال الهاتفي مع الرئيس الاميركي لإجراء مقايضة رابحة: خذ الدم، وهات الماء. خذ النفط وهات الماء. خذنا وهات الماء!.

. . وصوتُ الماء ضجيج عرس، أعلى أعلى من أصوات الطائرات. صوت الماء مرايا لعروق الأرض الحيَّة. صوت الماء هو الحرية. صوتُ الماء هو الإنسانية.

وما أن يعلن «البيت الأبيض» في واشنطن عن عودة الماء إلى بيروت الغربية حتى يهب المحاصرون إلى حنفياتهم إلا نحن. . نحن سُكّان هذه البناية العالية ـ العالية إلى أعلى نداء العطش. فقد حاصرَنا صاحبها قبل حصار بيروت بسنين، منذ انحلّت السلطة، فجُنَّ هو بسلطته: السلطة على الماء، ما أن يتشاجر مع أحد المستأجرين أو مع زوجته، أو مع حسابه في البنك، حتى يهب إلى قطع الماء عنا جميعاً. لذلك ربَّى فينا، من زمان، هذا الصبر على الماء. ربّى فينا مدائح الماء. وعلّمنا أن نفرح بالماء، حين يتدفق ساعة، كما لم تفرح به قبائل داحس، وحوّلنا إلى حراس أنابيب، نتجسّس منذ الفجر على صوت الماء المرتقب. وحين نسمع غرغرة الماء نعلن العيد ونجمع ما تهبنا رحمته من الأواني والقناني والصحون والكؤوس وفي جيوب المعاطف الجلدية، فالماء في هذه البناية كنز نجلّله بالطقوس، ونتحدث عن سيرته في سهراتنا. لقد وحّدنا حديث الماء وحوّلنا إلى عائلة واحدة. ولكن صاحب البناية يغار من شارون، وينافسه في السادية. فحين تبتهج بيروت الغربية بالإفراج عن الماء، نكتفي نحن بدور التضامن، لأن هذه البهجة لا تشملنا ولأنَّ الماء لا يصل إلينا. نحن آخر الأسرى يا أبا ربيع. إغفر لنا ذنوباً لم نرتكبها يا أبا ربيع. الدنيا حرب يا أبا ربيع. والعفو عند المقدرة يا أبا ربيع. أعطنا رزقنا من الماء يا أبا ربيع، وما من سميع وما من شفيع، إلى أن اضطررت إلى الاستعانة باللجان الشعبية المسلحة التي أفرجت عن الماء بالقوة، فنسينا الحرب ونسينا الحصار من فرط ما فرحنا بالماء.

* * *

لي . . ولمن اكتوى مثلي . بجروح الماء ، قدَّم «ابن سيده» اسماء الماء ، ونعوته ، هذا غيض من فيضها :

ماء . ماءة . مويه . أمواه . مياه . ماهة . بَلال . رجع . أبيض . أسود . عتيق . عِدّ . كَرَع . غَمْر . عُلْجُوم . بَلائِق . زَغْرُب . السَّعْبر . الطِّيْس . الطيسل . الرَّيْب . الجوار . الخِضْرِم . القَلَيْذم . العُبام . الهُر . الهرهور . الهرهار . الهراهر . اليهمور . الزمزم . الزُمزوم . الزمزام . القاموس . الجُراجر . اليهيري . الضَحضاح . الكوثر . الأهْيغ . الجبجاب . المُلاهل . الطرطبيس . البثق . الحائر . المدّ . الحَفْل . الأزْيب . الثَمَد . المشفوه . المضفوف . الرقراق . الرقّ . الفَراش . الطَّسْل . الضَهْل . السَمَلِ . البَرْضُ . النُطْفة . الرَزَغ . الضَبَّة . الشَوْل . الرفض . الخِبْط . الصبابة . القصملة . الصلاصل . الضُلْضُل . الذُفاف . الذُفّ . الذُفَف . القطرب . الزَرْجُون . المَزَّة . المجَّة . النُقْمة . النُغْبة . المُكْلَة . النُشْفة . الغُرْفة . القُرحة . الحُسْوة . المُزْعة . السُؤر . الوَشَل . اللَزب . الجحقه . الهِلال . الرَشْف . الطَمْلَة . الدَعْث . الحَيْل . الطَلْح . النُقاخ . الزُلال . الفُرات . الرُضاب . الفضيض . الشريب . الشَرُوب . الهُجْهج . المُخْضِم . الزُعاق . الذُعاق . النمير . المَسُوس . الباضع . الغريض . البُسْر . الحنبريت . القَرَاح .

وغيرها . . وغيرها . . وغيرها . .

* * *

. . أهبط على الدرج الحجري الطويل وسط الزجاج المهشّم. لا أعرف إن كانت الطوابق السفلى قد أُصيبت. وأتساءل: ماذا أفعل لو انقضّت عليَّ جثة؟ كيف سأحملها ولمن أنقلها؟ . . ماذا أفعل لو لم أجد أحداً أتحدث إليه، لمن أنقلُ كلامي ومن يشاطرني صمتي؟ سأصفّر لحناً. . مطلع أغنية من أغاني بيروت المتفجرة من هذه الحرب. لم تكن بيروت للغناء، ولم يستخدم الشعر اللبناني اسم بيروت القابل للاستعمال في جميع بحور الشعر. اسم موسيقي ينساب بسلاسة في قصيدة النثر وفي القصيدة. . وماذا أفعل لو لم أجد قطة أُداعبها؟ ماذا سأفعل لو لم أجد ما أفعل؟

على الطابق الرابع باب مفتوح. صباح الخير يا استاذي ـ هكذا كنت أخاطبه منذ عشر سنين. في الثمانين من العمر، وسيم، هادىء، كأنه قلب يمشي على قدمين. رحل من منزله الكائن على خطوط التماس بعدما انهارت عليه جدرانه الثلاثة، وأقام في شقتي ستة شهور عندما كنت مختفياً في أوروبا، ثم أقام في شقة ابنته. كنت أزوره يومياً وأحمل عنه عبء الحرب، وأحمل له الكعكة والجريدة. كان شاعراً مجدداً، ولعلّه أوّل من كتب قصيدة النثر ثم توقف عن كتابة الشعر ليتفرغ كلية، لمجلته الأدبية الشهرية. كان هو هيئة التحرير والادارة والموزِّع والمصحح. . لم تعادل شكواه من وحشية القصف غير شكـواه من الماء وصاحب البناية. كان يأنس إليَّ وإلى أحفاده، ويتقبَّل اضطهاد زوجته ذات الشخصية الطاغية بابتسامة اعتذار عن ذنب لم يرتكبه. وحين كان يصرخ من الألم العصبيّ الذي يسبّبه إلحاح الطائرات المغيرة: كفى، ماذا تريدون منّا. نحن نعرف أنكم أقوى منا. ونعرف أنكم تمتلكون طائرات أحدث، وأسلحة أشد فتكاً. ولكن ماذا تريدون منا. . كفى! كانت زوجته تزجره: دعهم. . وشأنهم. . عايزين يضربوا. . وانت مالك ـ تقولها باللهجة المصرية الرادعة دون أن تخجل من وجودي: عايزين يضربوا الفلسطينيين. وكنت أمازحه لأقطع تيار الحرج المكهرب حقاً، لماذا تعرقل عمل الطيارين؟ فيضحك، وهي لا تضحك. كانت في داخلها التربويّ

المعادي لما هو خارج طائفتها تحتفل بالخدمة المجانية التي يقدمها الاسرائيليون لبطل أحلامها الوحيد: بشير الجميّل. كانت تعتقد أن هذه الحرب هي مجرد تطوع إسرائيلي لتنظيف لبنان من الغرباء والمسلمين، وحين ستنتهي بوصول بطل أحلامها إلى رئاسة الجمهورية، وبخروج الغرباء من لبنان، سيعود الاسرائيليون من حيث جاءوا دون أن يحصلوا على أيّ أجر. كان في وسعك أن تجادلها في سيرة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء ورسائل بولس دون أن تنفعل. أما البشير، فتحيط اسمه بحزام التابو المقدّس. يا سيدة لبنان احفظيه لنا!.. ومع ذلك لم أكنّ لها العداء، بل الاحساس بالشفقة على ما قطعته من أشواط الوهم ورفض «الآخر». ولم أحمل لها الضغينة، بل حملت لها ما أجده لدى الباعة من خبز وعنب. فأمام مثل هذه الانغلاق الصلب والتشكّل النهائي تتوقف محاولات الإقناع. وعبثاً حاول الاستاذ، ذو الماضي العلماني، أن يقنعها بأن الاسرائيليين لا يحبون لبنان ولا يدافعون عن لبنان، وأن صاروخاً واحداً من طائراتهم سيحولنا، نحن الموارنة والمسلمين الجالسين في هذه الشقة، إلى كفتة، وهي، هي المحصنة بقناعتها النهائية، تحبُّ المناقشة العقيمة. ويسألني الأستاذ رأيي ليساعدني عليها، فأتجنّب الاستفزاز وما قد تغدقه عليّ من باطن، قائلاً: ليست تلك مشكلتي، فتحرّك الماء الراكد: إذن، ما هي مشكلتك؟

أناور قائلاً: مشكلتي هي أن أعرف ما هي مشكلتي. وفي المناسبة، هل أفرج صاحب البناية عن الماء؟

تقول: لا تتهرب مما نحن فيه، أنت تعرف أن لا مشكلة بين الموارنة واليهود.

أقول: لا أعرف ذلك.

تقول: أنت تعرف أننا حلفاء.

أقول: لا أعرف.

تقول: إذن، ماذا تعرف؟

أقول: أعرف أن للماء لوناً وطعماً ورائحة . .
تقول: لماذا لا تذهبون إلى بلادكم وتنتهي المشكلة؟
أقول: هكذا. ببساطة. نعود إلى بلادنا. وتنتهي المشكلة؟
تقول: نعم.
أقول: ألا تعرفين أنهم لا يسمحون لنا بالذهاب إلى بلادنا؟
تقول: إذن، حاربوهم.
أقول: ها نحن نحاربهم. ألسنا في حالة حرب؟
تقول: أنتم تحاربون لتبقوا هنا، ولا تحاربون لتعودوا.
أقول: كي نعود إلى هناك. لا بد لنا من أن نكون في مكان ما، فالعائد . إن عاد. . لا يعود من عدم.
تقول: لماذا لا تقيمون في البلاد العربية وتحاربونهم.
أقول: قالوا لنا ما تقولينه الآن لنا. طردونا. وها نحن نقاتل هنا مع اللبنانيين دفاعاً عن بيروت، ودفاعاً عن وجودنا.
تقول: حربكم بلا هدف ولا توصل إلى نتيجة.
أقول: قد لا توصل إلى نتيجة. ولكن هدفها هو الدفاع عن النفس.
تقول: عليكم أن تخرجوا من هنا.
أقول: لقد وافقنا على الخروج. سنخرج. وهاهم يمنعوننا من الخروج ولكن، ألا يعنيك إلى أين سنخرج؟
تقول: لا يعنيني،
وارتفع من الراديو صوت فيروز: بحبك يا لبنان. ارتفع من إذاعتين متحازبتين.
قلت: ألا تحبّين هذه الأغنية؟
قالت: أحبها. وأنت؟
قلت: أحبها كثيراً، وتوجعني.
قالت: بأيِّ حق تُحبّها؟ ألا ترى إلى أيّ حد تماديتهم.

قلت: إنها أغنية جميلة. ولبنان جميل. وهذا كل ما في الأمر.

قالت: عليك أن تحبَّ القدس.

قلت: أحب القدس. والاسرائيليون يحبون القدس ويغنون لها وأنت تحبين القدس.. وفيروز تغني للقدس.. وريكاردوس أحب القدس.

قالت: لا. أنا لا أحب القدس.

* * *

الشارع. الساعة السابعة. الأفق بيضة ضخمة من فولاذ. لمن أقدِّم صمتي البريء. صار الشارع أعرض. أمشي على مهل. وأمشي على مهل.. وأمشي على مهل كي لا تخطئني طائرة. يفتح العدم أشداقه ولا يبتلعني. أسير بلا هدف كأنني أتعرف على هذه الشوارع للمرة الأولى، وكأنني أسير عليها للمرة الأخيرة. وداع من طرف واحد. أنا المُشَيِّعُ والمُشيَّع. لو قطة.. لو أجد قطة. لا حزن. لا فرح. لا بداية. لا نهاية. لا غضب. لا رضا. لا ذكرى. لا حلم. لا ماض. لا غد. لا صوت. لا صمت. لا حرب. لا سلام. لا حياة، لا موت، لا نعم، لا لا، تزوج الموج طحلب الصخرة على شاطىء بعيد وخرجتُ، للتو، من هذا الزواج الذي دام مليون سنة. خرجت للتو فلم أعرف أين أنا. لم أعرف مَنْ أنا. لم أعرف ما اسمي، ولا اسم هذا المكان. لم أعرف أن في وسعي أن أمتشق ضلعاً من ضلوعي لأجد فيه حواراً لهذا السكون المطلق. ما اسمي، مَنْ سمّاني. مَنْ سَيُسَمِّيني: آدم!.

* * *

« . . ثم إن الله خلق، بعد القلم وبعد أن أمره فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، سحاباً رقيقاً هو الغمام الذي قال فيه النبي، ﷺ، وقد سأله أبو زرين العقيلي: أين كان ربُّنا قبل أن يخلق الخلق؟

فقال: في غمامٍ، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء.

قلتُ: هذا فيه نظر، لأنه قد تقدم أن أوّل ما خلق الله تعالى القلم وقال له: اكتب. . فجرى في تلك الساعة، ثم ذُكر أن الله خلق بعد القلم، وبعد أن جرى بما هو كائن، سحاباً. ومن المعلوم أن الكتابة لا بُدَّ فيها من آلة يُكتب بها، وهو القلم، ومن شيء يُكتب فيه، وهو اللوح المحفوظ. فكان ينبغي أن يذكر اللوح المحفوظ ثانياً للقلم، والله أعلم. ويحتمل أن يكون تُرك ذكره لأنه معلوم من مفهوم اللفظ بطريقة الملازمة. .

ثم اختلف العلماء فيمن خلق الله بعد الغمام، فروى الضحّاك عن ابن مزاحم عن ابن عبّاس: أوّلُ ما خلق الله العرش، فاستوى عليه، وقال آخرون: خلق الله الماء قبل العرش، وخلق العرش فوضعه على الماء. »

وقيل: إن الذي خلق الله تعالى بعد القلم الكرسيّ، ثم العرش، ثم الهواء، ثم الظلمات، ثم الماء، فوضع العرش عليه.

قال: وقول من قال: إن الماء خلق قبل العرش أولى بالصواب لحديث أبي رزين عن النبي، ﷺ، وقد قيل: إن الماء كان على متن الريح حين خُلق العرش، قاله سعيد بن جبير عن ابن عباس، فإن كان كذلك، فقد خُلقا قبل العرش.

وقال غيره: إن الله خلق القلم قبل أن يخلق شيئاً بألف عام.

واختلفوا أيضاً في اليوم الذي ابتدأ الله تعالى فيه خلق السموات والأرض. وقال عبد الله بن سلام، وكعب، والضُحّاك، ومجاهد: ابتداء الخلق يوم الأحد. وقال محمد بن إسحاق: ابتداء الخلق يوم السبت. . وكذلك قال أبو هريرة.

واختلفوا أيضاً فيما خلق كُلَّ يوم، فقال عبد الله بن سلام: إن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد والإثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات يومي الخميس والجمعة، ففرغ آخر ساعة من الجمعة، فخلق فيها آدم، عليه السلام، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

وقال ابن عباس من رواية عكرمة عنه: إن الله تعالى وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت.

وروى السريُّ عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عبَّاس، وعن مُرّة الهمذاني وعن ابن مسعود: إن الله عزَّ وجلَّ كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء، فلمّا أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمَّاه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فَتَقَها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الإثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره تعالى في القرآن في قوله: ﴿ن والقلم﴾. والحوت في الماء. والماء على ظهر صفاة، والصَفَاةُ على ظهر مَلَك، والملكُ على صخرة، والصخرةُ في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لُقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرضُ، فأرسى عليها الجبال فقرَّت.

قال ابن عباس والضحاك ومجاهد وكعب وغيرهم: كُلُّ يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماء والأرض كألف سنة.

واختلف العلماء في الليل والنهار، أيُّهما خُلِق قبل صاحبه. بعضهم يقول: إن الليل خلق قبل النهار. وقال آخرون: كان النهار قبل الليل، واستدلوا بأن الله تعالى كان ولا شيء معه، ولا ليل ولا نهار، وأن نوره كان يضيء به كل شيء خلقه حتى خلق الليل، قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. نور السموات من نور وجهه. وقال عبيد بن عمير الحارثي:

كنتُ عند عليّ فسأله ابن الكواء عن السواد الذي في القمر فقال: ذلك آيةٌ محيت. وروى أبو جعفر حديثاً طويلاً عن ابن عباس عن النبي، ﷺ، في خلق الشمس والقمر وسيرهما، فإنهما على عجلتين، لكُلٍّ عجلة ثلاث مائة وستون عُروة، يجرها بعددها من الملائكة، وانهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض، فذلك كسوفهما، ثم ان الملائكة يخرجونها فذلك تجليتهما من الكسوف...».

[ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ]

* * *

.. أسيرُ وسط الشارع تماماً، ولا يهمني أن أعرف إلى أين أنا سائر، وكأنني في سرنمة. لا أخرج من شيء ولا أدخل في شيء. ولكن هدير هواجسي المتلاطمة يعلو على هدير طائرات لا أكترث بها..

لم نفهم لبنان. لم نفهم لبنان أبداً. ولن نفهم لبنان. لن نفهم لبنان إلى الأبد..

لم نر من لبنان غير صورتنا على وجه الحجر المصقول، مُخيِّلة تُعيد خلق العالم على شاكلتها، لا لأنها واهمة بل لأنها في حاجة إلى أن تضع للخيال موطىء قدم. شيء من صناعة الفيديو: نكتب القصة، والسيناريو، والحوار، ونختار الممثلين والكاميرا والمنتج والمخرج، ونوزِّع الأدوار دون أن ننتبه إلى أننا نحن الموزعون في أدوار. وحين ننظر إلى وجوهنا ودمنا على الشاشة، نصفِّق للصورة ناسين أنها من صناعتنا وما أن يتحول الإنتاج إلى إعادة إنتاج حتى يُصَدِّق أن «الآخر» هو الذي يشير إلينا.

هل كان في مقدورنا أن نرى بشكل آخر غير ما يُسَهِّل علينا تأليبَ الواقع على ماديته؟ بنيتُنا التحتية هي المعنويات. ماركس واقفاً على رأسه، معيداً هيغل للوقوف على قدميه بأدوات ميكيافيلي الذي أسلم على باب خيمة من خيام صلاح الدين.

الآنَ لبنان هو هكذا، يَسْتَعصي على الدراسة والإدراك؟ أم لأننا لا نملك من أدوات معرفة لبنان غير هذه الطريقة في التوفيق؟

لا أتورَّط بمحاولة الإجابة، بقدرما أزُجُّ نفسي في حيرة: لا أحد يفهم لبنان، لا أصحابه المجازيون، ولا صُنَّاعه، لا مُدمِّروه ولا بُنَاتُهُ، لا حلفاؤه ولا أصدقاؤه، لا الداخلون ولا الخارجون، لأنَّ الواقع المفكَّك لا يُدْرَك، أم لأن الوعي المفكَّك لا يُدْرِك..

ولا أريد جواباً صحيحاً، بقدر ما أريد سؤالاً صحيحاً،

لم نر من لبنان غير اللغة التي تُشيع فينا غريزة الوجود، وعلاقة قربى رفعها إلى مستوى الخطاب القومي ذلك المصريُّ الكبير عبد الناصر الذي خاطب في سُكَّان هذه القارة المتحولة إلى فسيفساء حاسَّة الغياب المرهفة، وسمَّى من النهر ضفافاً تُخفي ما في النهر من وحل، وطوائف، ونفايات صليبيين كانت تجدِّد حياتها، في هدوء الظلام، خلف دويِّ الخطاب.. إلى أن انكسر الخطاب فتقدمت بخطابها شبه المشترك.

فيديو..

أن نرى ما تريحنا رؤيته، في لحظة يتحول فيها شريط حياتنا إلى هذه الرؤية، المتحدرة من الخطاب الكبير، في محاولة لتحويلها إلى وعدٍ تراجع عن الوعي، فصار ممثلو الأغلبية أقلية محاصرة.

فيديو.

لأن الزمن ليس زمن أنبياء تتحول فيه العزلة إلى بوصلة صواب، والأقلية ـ المترسبة من مشروع الأكثرية ـ إلى هداية.

فيديو..

لأن حزيران المصنوع ليكون نهاية الفكرة العربية لا تحيله الأنظمة، المشاركة في صناعته، إلى انتقام الشارع ليكون بداية البديل، بل لامتصاص ما ينبغي امتصاصه من غضب لا يرد، تُجري أثناءه الأنظمة عملية تثبيت انعطافها نحو سيادة الفكرة الاقليمية، والفكرة الطائفية.

فيديو . .

لأن ماركيز صيدا الذي ينتظر إذن البابا بوضع أخته تحت مسلم ، وإلاّ فبنت أخته ، لا يصلح حليفاً حقيقياً ضد الانجليز الذين يحاصرون عكا . .

وفيديو . .

لأن سقوط المركز بالتوقيع على معاهدة تضمن نهاية الحروب ، يأذن بهجوم الأطراف على مركز الموضوع ، ونقله من موضوع دعوة إلى موضوع انشقاق وفتنة .

وفيديو . .

لأن اقتسام الساحل والجبل بين العرب والافرنج ، في هذه الشروط المعاصرة ، لا يرمي إلى ضمان احتفاظ العرب بما تبقّى لهم من قلاع ومدى ، لمواصلة الصراع ، بل يرمي إلى منح العدو هدنة توفر له إمكانية تأسيس نماذجه الكفيلة بانتقاله من استثناء إلى قاعدة .

فيديو . .

لأن هذا الضلع من الجزيرة ، الضلع المكسور ، مطلوب للمحاكمة بتهمة الاعتداء على راحة العروش بترويج كلمات ممنوعة التداول في الأطراف العربية : امرأة ، معارضة ، كتاب ، أحزاب ، برلمان ، حرية ، خنزير ، ديموقراطية ، شيوعية ، علمانية . .

فيديو . .

لأن فلسطين تتطور من وطن إلى شعار ليس للتطبيق ، بل للتعليق على الأحداث ، ولتزويق خطاب الانقلاب ، وحلّ الأحزاب ، ومنع زراعة القمح ، واستبدال الكدح بالربح السريع ، وإلى تطوير صناعة الانقلاب ، الثقيلة منها والخفيفة ، إلى أن يُعْقَد القِران على آخر حفيدات الخليفة . .

وعلى الحدود ، تُعلن الحرب على الحدود .

لذلـك، كان علينـا ألاّ نرى من لبنـان غير ما رأيناه من صناعة الأمل، وجـه البطـولـة السـاطـع المتفجـر من المـدافعـين عن بأسهم العظيم أمام أمل الصَدفة المنغلقـة ومن هجـوم بحـر الصحـراء على جزيرة الروح الصغيرة. أسمـاء الأمكنـة تضيق وتضيق وتنكمش. من الـوطن الممتـد من المحيـط إلى الخليـج إلى ما هو أضيق: شرم الشيـخ، جبـل الشيـخ، الضفـة الغـربية لنهر الأردن، مدرسة البنات في نابلـس، حارة السجعية في غزة، غاليري سمعان، شارع أسعـد الأسعـد في بيروت، فنـدق طابـا في سيناء، بئر العبد هنا، مخيم شاتيلا، مستديرة المطار، إلى متراس أخير تكون بعده الصحراء أو البحر..

* * *

لتتقدَّس أيديكم، أيها القابضون على الحجر الأخير وعلى الجمر الأخير..

لتتقدَّس أيديكم الرافعة، وحدها، جبالاً من أنقاض الفكرة اليتيمة،

وليتحـول ظلكم المحـروق إلى رمـاد عنقـاء يجدِّدكم لتبنـوا منه ومنكم مغارةً لطفلٍ يُولد،

ولتنبت أسماؤكم حبقـاً وريحـانـاً على سهـل يمتد من خطاكم، سهل لتهتدي حبةُ القمح إلى ترابها المسروق؛

أيها المشرقون فينا أقماراً يعجنها دم سخيّ ينادي حُرَّاس القلعة الهاربين إلى صفوف الأعداء، فما يجيب سوى الصدى الساخر:

وحدكم!...

من آثـار خُطـاكم، الخطى التي لا تخطـو إلاّ تحت أو فوق، سنلُمُّ الجزر المتطايرة المتنافرة كما يلمُّ الشاعرُ البرق المتناثر من حوافر خيل على صُوَّان.

ومن خيمة هي ما يسيل علينا من ريش الصقور المعدنية سندلُّ القبائل على حدود أسمائها.

. . وحدكم!

فاحموا حدَّ النشيد، كما تحمون، مما يثلم القلب في هذه البريّة الضيقة، الضيقة كمدى لا يطلُّ من النافذة. .

. . وحدكم!

البحـر من ورائكم، والبحـر من أمامكم، والبحر عن يمينكم، والبحر عن يساركم، ولا يابسة إلّا هذه اليد الممسكة بحجر هو الأرض.

. . وحدكم

فارفعـوا مائـة مدينـة أخرى على هذا الزناد، لتخرج المدن القديمة من اصطبلاتها ومن سلطة الجراد النابت في خيام الفراء الصحراوي . .

لم يبق لنا من موت إلاَّ موت الموت . .

وحدكم،

تحمـون سلالـة هذا السـاحـل من اختـلاط المعاني، فلا يكون التاريخ سلبس المراس، ولا يكون المكان إرثاً يورث.

ولتتقدَّس أيديكم أيها القابضون على الحجر الأخير وعلى الجمر الأخير.

* * *

ـ وداعاً سيّدي

ـ إلى أين؟

ـ إلى الجنون؟

ـ أي جنون؟

. أي جنون . . فقد صرتُ كلاماً . .

* * *

. . مَسَّني ما مسَّني من حماسة، وواصل الفضاء المحتلّ، والبحر المحتلّ، وجبل الصنوبر المحتلّ قصف الهواجس الأولى وسيرة خروج آدم من الجنة، المتعدد في سير خروج لا تنتهي. لم يعد لي وطن ولم يعد لي جسد. وواصل القصفُ قصف أناشيد المدائح وحوارات الموتى المتحركة في دم كالضوء يحرق الأسئلة الباردة. عم أبحث؟

عن امتلاء بالبارود، عن تخمة لغضب النفس. تدخل الصواريخُ في مسام جلدي وتخرج سالمة. ما أقواها! ولا أحسّ بالجحيم الذي يوزعه الهواء طالما صرت أتنفَّسُ الجحيم وأتصبَّبُ جهنم، وأُريد أن أُنشد. نعم، أُريد أن أنشد لهذا النهار المحروق، أريد أن أنشد. أريد أن أجد لغة تحوّل اللغة إلى حديد للروح، إلى لغة مضادة لهذه الطائرات. . الحشرات الفضية اللامعة. . أُريد أن أُنشد. أُريد لغة تسندني وأسندها، وتشهدني وأشهدها على ما فينا من قوّة الغلبة على هذه العُزلة الكونية.

وأمشي . .

أمشي لأراني ماشياً، ثابت الخطوة، حُرّاً حتى من نفسي في منتصف الشارع، منتصف الشارع تماماً. تنبح عليَّ الوحوش الطائرة. تبصق نارها ولا أُبالي. لا أسمع إلا وقع خطاي على الإسفلت المحفور. ولا أرى أحداً. عَمَّ أبحث؟ لا شيء. لعلَّ عناد التحدّي الذي يخفي خوف الوحدة، أو الخشية من الموت بين الانقاض هوما يُمسك بخطاي ويضرب بها الشوارع النائمة. لم أر بيروت، من قبل في مثل هذا النوم الصباحي. ولأول مرة أرى الأرصفة، أرصفة واضحة. ولأول مرة أرى الشجر، شجراً واضحاً، بجذوع وأغصان وأوراق دائمة الخضرة. هل بيروت جميلة في حد ذاتها؟ كانت الحركة، والحوار، والزحام وضوضاء التجارة تخفي هذه الملاحظة، وتحوّل بيروت من مدينة إلى مفهوم، ومعنى، ومصطلح، ودلالة. كانت تطبع الكتب، وتوزع الصحف، وتعقد الندوات والمؤتمرات لتعالج قضايا العالم ولا تنتبه إلى ذاتها. كانت مشغولة بمدّ لسان السخرية لما حولها من رمل وقمع. كانت ورشة

حرية . وكانت جدرانها تحمل موسوعة العالم الحديث . وكانت مصنع ملصقات . وقد تكون هي أول مدينة في العالم طوّرت صناعة الملصقات إلى مستوى الجريدة اليومية ، ولعلّ قدراتها التعبيرية المتشكلة من تنوع ، وموت ، وفوضى ، وحرية ، وغربة ، وهجرة ، وشعوب ، قد امتلأت وفاضت عن جميع أشكال التعبير المعروفة ، فوجدت في الملصق ما يستوعب فائض التعبير عن اليومي ، حتى أصبح الملصق لفظة دارجة في القصائد والقصص ليشير إلى خصوصية . وجوه على الجدران ، شهداء طازجون خارجون للتو من الحياة ومن المطبعة ، موت يُعيد إنتاج موته . شهيد يزيح وجه شهيد آخر عن الحائط ويجلس مكانه إلى أن يزيحه شهيد جديد أو مطر . وشعارات تمحو شعارات ، تتبدل ، وترتب أولويات الحماسة والواجبات الأممية اليومية . كل ما يحدث في العالم يحدث هنا ، انعكاساً تارة ، ونموذجاً تارة ، وقد يتشاجر متفقان في مقهى باريسي ، فينقلب شجارهما الكلامي إلى اشتباك مُسَلَّح هنا . لأن على بيروت أن تتضامن أو تتزامن مع كل جديد ، ومع كل قديم يتجدَّد ، ومع كل حركة جديدة ونظرية جديدة . سينما ثورات سريعة الدوران . فيديو للتطبيق المباشر . القائد الجديد أو النجم الجديد ، في أي مجال ، مرشح ليكون قائدها أو نجمها . تطفح جدرانها بالصور والكلمات ، ويلهث المارّة وراء وعي يتبدّل . لذا ، فان أعمار النجوم والقادة هنا قصيرة ، لا لأن الجمهور هنا سريع الضجر ، فالجمهور ليس هنا ، بل لأن السباق يجري على النمط الأميركي ولو كانت أهدافه معادية لأميركا ، فهنا مندوبون دائمون لأيِّ وعي جديد ، ولأية نغمة جديدة ، ولأية طفرة جديدة ، من الولاعة المتدلية من صدر فتاة الجينز دليلاً على الافراط في اليسارية ، إلى حجاب يغطي الوجه واليدين دليلاً على الأصالة ، إلى تلقف كل إشارة تضع كارل ماركس في فهرست الاستشراق ، دليلاً على هبوب ريح الشرق . هنا محطة تحويل كونية لكُلِّ خروج عن السياق ، وتعميمه إلى برنامج عمل لشعب مشغول بتأمين خبزه ومائه وبدفن قتلاه . .

أمشي في شارع لا يمشي فيه أحد. أتذكر أني مشيت، من قبل، في شارع لم يمشِ فيه أحد. وأتذكر أن أحداً لم يكن معي. قال لي:

ـ دَعْكَ من هذا الحوار. وتعال معي.

ـ إلى أين؟

ـ لترى هذا الرجل

ـ ماذا يفعل هذا الرجل؟

ـ يذهب إلى بيته.

ـ ولكنه يمشي إلى الأمام ويعود إلى الوراء

ـ تلك طريقته في المشي.

ـ إنه لا يمشي. إنه يتأرجح. إنه يرقص.

ـ راقبه جيداً. عُدَّ خطواته..

واحدة، اثنتان، أربع، سبع، تسع إلى الأمام..

واحدة، اثنتان، ثلاث، سبع، ثمانٍ إلى الوراء..

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ إنه يمشي. في هذه الطريقة وحدها يعرف الطريق إلى البيت: عشر خطوات إلى الأمام وتسع خطوات إلى الوراء. أي أنه يتقدم خطوة.

ـ وإذا سرح ذهنه، وأخطأ في العَدّ؟

ـ عندها لا يصل إلى بيته

ـ هل تعني شيئاً؟

ـ لا أعني شيئاً..

* * *

.. قريباً من فندق «الكافالييه» نظرت إلى ساعتي. الثامنة. هل صحا الشاعر (ي) من النوم؟ من يستطيع النوم تحت هذه القطعان من الطائرات؟ أثار فضولي أن أعرف كيف يقدر شاعر على الكتابة، كيف يجد لغة لهذه اللغة. و(ي) هو الشاعر صاحب القصيدة اليومية المرئية، المتأنية، القادرة على التقاط تفاصيل دالَّة على جوهر إنساني. هو الشاعر القادر على تحريك الفرح من الركام وعلى إيقاظ الدهش. وهو حين يكتب يغنيني عن الكتابة، لأنه يقول نيابة عنا ما نحسُّ بالرغبة في قوله. يملأني بشجن يوقظ صفاؤه في مادَّة الفرح. وما دام هذا الشعر يكتب فلا أجد دليلاً ملموساً على مأزق الشعر. وهو باختصار شاعري التقيتُه أول مرة في بغداد وسرعان ما حاول اغتيالي، لأنه يشرب ما تُيَسّره المائدة من كحول لا تتجانس إلا للتشاكس، فهو لا يعترف بفروق الكحول الكحول هي الكحول. ما الفرق: بيرة، ويسكي، نبيذ، عرق، جنّ كُلُّها تُجنّن. وحين كان يوصلني في آخر الليل بسيارته إلى فندق «بغداد»، كان يحاول دفع السيارة، بمن فيها، للسباحة في نهر دجلة لولا استغاثتنا الصاحية. قال ليهدِّىء من روعنا: لا تخافوا، فأنا الآن موظف في دائرة الريّ. صحنا: الريّ؟ قال: الريّ، نعم، الريّ. وأخيراً انتقل من دائرة الريّ في بغداد إلى دائرة الدم في بيروت. كُنّا نحيي أمسيات مشتركة في بيروت ودمشق، وفي صور منذ أسابيع، في إحدى قواعد المقاتلين. رأيته ليلة أمس قرب فندق بلازا. تعرَّف عليَّ وسط الظلام الكحلي بواسطة مصباح يدوي، فصرخ بي: كيف تسير وحدك بلا حراسة؟ قلت: ومتى سرت بحراسة. قال: لماذا تقف هنا؟ قلت: أنتظر سيارة أجرة لأذهب إلى غرفة العمليات.

* * *

أنتظرُ الشاعرَ في ردهة الفندق. ولكن، لماذا يطلع الحلزون في وجهي. حلزون طويـل. حلزون لا يكفُّ عن استعراض رخاوته. يلعب على المقاعد والجدران. يدلق لعابه الأخضر على فتاة تعزف على البيانو. حلزون يبكي. حلزون يضحك. حلزون يسكر. يدخل الشاشة. يخرج من الشاشة. يعلّق بصـره الـزائـغ على الـلاشيء. حلزون لا ينظـر. يتهـاوى. يتـمايل. يتأود. يتنهد. يتخلّع. يتسكع. حلزون يسير على قدمين من مطّاط يتأرجح. ولماذا يطلع الحلزون في وجهي هذا الصباح؟ اللهم احفظنا من بشاعة المنظر!

* * *

.. ينزل الشاعر من غرفته مُتكئاً على جرادة..

أفّ.. أهـذه أيضـاً. ما الـذي جاء بي إلى هذا المكان. نتعانق. أهزّ على كتفيـه لأنفض عنـه سمات النعـاس. كيف حالـك؟ متشـائم. هذا يوم عجيب يا أخي. مش معقـول يا أخي. لم يتـوقف القصف ثانيةً واحدة. إنهم يحرثون المدينة. أين كنت؟ في شقتي. مجنون. مجنون يا أخي كيف تنام هناك؟ غداً سأنـام هنـا.. ولكن أينقصنا أن يُسفر القصف عن حلزون وجرادة؟ ماذا تعني؟ لا أعني شيئاً. عشر خطوات إلى الأمام، وتسع خطوات إلى الوراء. النتيجة خطوة إلى الأمام. حسناً! هذا حسن..

حطت جرادة أخـرى، خائفـة، على حضني. ارتـدتْ عِفّة الخوف من الطـائـرات لتحتـكّ بها بحُكّ. قلت لها مازحـاً ونـاصحاً: هذا يوم لا نهاية له. عندهم ألف طائرة تستطيع القيام بعشرة آلاف غارة، وإذا واصلتِ الرد على كل غارة بهذا الاحتكـاك، فاني سأجف، سأصـير رجـلاً ممموداً! والتفتُ إلى الشاعر: قل لي. لماذا تندلع شهوات الفتيات في أسوأ الحالات؟ أهذا هو وقت الحب! ليس هذا وقت الحب، إنـه وقت الشهـوة الخـاطفـة. يتعاون جسدان عابران على صدّ موت عابر بموت آخر هو موت العَسَل.

جاء صديقنا الكبير «ف» ليساعدني على رفع الشاعر عن عبارة سقطت تحتـه: يا أخـي مش معـقـول. هذا مش معـقـول. يا أخي هذا شيء غير معقول. اشتبك مع العبارة. خنقها. وتكوم فوقها. ساعدني يا «ف» ساعدني على تخليص العبـارة من تأتأة «ي». نضحـك. كان علينا أن نضحك ونقهقه إلى حدّ أزعجنـا معـه فتـاة البيـانـو. قلنـا لها: ليس هذا وقت البيـانـو، ولا الضحك، ولا الشعر. هذا وقت الطائرات. وهذا وقت الحلزون.

هل تكتبان؟ سألنا «ف». .

«ي» يكتب يومياً. . وقرأ لنا إحدى لقطات الكاميرا الداخلية الحسّاسة التي لا يتخلّى عنها.

وأنت؟ سألاني.

قلت: إني أختـزن حتى الاختنـاق، وأثير سخرية الزملاء القائلين: ما جدوى القصيـدة. . ما جدواهـا بعدمًا تنتهي الحرب. ولكنني أصرخ في لحظة لا يصـل فيهـا الصـراخ. ويبـدو لي أن على اللغـة ألّا تزج بنفسهـا في معـركة أصوات غير متكافئة. صوتك الخافت يا «ي» أفضل.

ـ ولكن ماذا تكتب؟

قلت: أتأتىء صرخة:

أشلاؤنا أسماؤنا. . لا. . لا مَفَرُّ

سقط القناع عن القناع عن القناع

سقط القناعُ

لا إخوة لكَ يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاعُ

لا الماء عندك، لا الدواء ولا السماء ولا الدماء ولا الشراعُ ولا الأمام ولا الوراء.

حاصر حصارك. . لا مَفَرُّ.

سقطتْ ذراعك فالتقطها

واضربْ عدوَّك . . لا مَفَرُّ
وسقطت قربك، فالتقطني
واضرب عدوك بي، فأنت الآن حُرٌّ
حُرٌّ
وحُرٌّ . .
قتلاك أو جرحاك فيك ذخيرة
فاضرب بها. اضربْ عدوكَ . . لا مَفَرُّ
أشلاؤ نا أسماؤ نا. أسماؤ نا أشلاؤ نا
حاصرْ حصَارك بالجنون
وبالجنون
وبالجنون
ذهب الذين تحبهم، ذهبوا
فإما أن تكون
أو لا تكون
سقط القناعُ عن القناع
سقط القناعُ، ولا أحدْ
ألاَّك في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيان
فاجعل كُلَّ متراس بَلَد
لا . . لا أحد
سقط القناعُ .
عرب أطاعوا رُومَهم
عرب وباعوا روحهم
عرب . . وضاعوا
سقط القناع
سقط القناعَ

.. سألنا «ف»: إلى أين ستخرجان؟

قال «ي»: إلى عدن..

ـ وأنت؟ سألني

قلت: لا أعرف..

صمت. صمت من حديد. كنا ثلاثة، فصرنا واحداً في ما ينهار حولنا من عالم. كأننا نعتني بمواد قابلة للانكسار ونحن نستعدُّ لاستيعاب عملية انتقال الواقع، برمته، إلى ذكريات تتألَّف على مرأى منا. ونحن نبتعد نشهد صيرورتنا إلى ذكريات. نحن الذكريات. ابتداء من هذه اللحظة سيتذكّر بعضنا بعضاً كما نتذكر عالماً بعيداً تلاشى في زرقة صارت أشدَّ زرقةً مما كانت عليه. سنتفرق في أوج اللهفة. ونحن الثلاثة نعرف الحقيقة: سنخرج ونعرف قسوة أقسى لا يجرؤ أحد على أن يُرى وهو يراها:

إن الناس معنا لأننا خارجون.

قلت: لن أخرج، لأنني لا أعرف إلى أين أخرج، ولأنني لا أعرف إلى أين أخرج، فلن أخرج.

وسألت «ف»: وأنت؟

قال: أنا باقٍ، أنا لبناني. وهذه بلادي. إلى أين أذهب!

خجلتُ من سؤالي، ومن فرط ما صارت بيروت نشيدي.. ونشيد مَنْ لا وطن له!... خجلت من شدّة التباس الفكرة.

* * *

«.. في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر. فاجتمعت إليه جموع كثيرة حتى أنه دخل السفينة وجلس. والجمع كُلُّه وقف على الشاطىء فكلّمهم كثيراً بأمثال قائلاً هوذا الزارع قد خرج ليزرع. وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطريق فجاءت الطيور وأكلته. وسقط آخر على

الأمـاكن المحجـرة حيث لم تكن له تربـة كثيرة ؛ فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض . ولكن لما اشرقت الشمس احترق ، وإذ لم يكن له أصل جفّ . وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه . وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمراً . . » .

« . . ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا . وإذا امرأة كنعـانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيِّد يا ابن داود ، ابنتي مجنـونـة جداً . فلم يُجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال لم أُرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضـالّـة . فأتت وسجـدت له قائلة يا سيِّد أَعِنِّي . فأجاب وقال ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب . فقالت نعم يا سيِّد . والكلاب أيضاً تأكلَ من الفُتات الذي يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيمٌ إيمانك . ليكن لكَ ما تريدين . فشُفيت ابنتها من تلك الساعة» .

[إنجيل متّى]

. . وفي فنـدق الكـومـودور ، معقـل الصحفيين الأجانب ، يستجوبني كاتب صحفي أميركي : ماذا تكتب أيها الشاعر في الحرب؟

ـ أكتب صمتي

ـ هل تعني أن الكلام للمدافع؟

ـ نعم . صوتها أعلى من أي صوت

ـ ماذا تفعل إذن؟

ـ أدعو إلى الصمود

ـ وهل ستنتصرون في هذه الحرب؟

ـ لا . المهم أن نبقى . بقاؤ نا انتصار

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ سيبدأ زمن جديد .

ـ ومتى تعود إلى كتابة الشعر؟

ـ حين تسكت المدافع قليلاً. حين أُفجر صمتي المليء بجميع هذه الأصوات. حين أجد لغتي الملائمة.

ـ أليس لك من دور؟

ـ لا. لا دور لي في الشعر الآن. دوري خارج القصيدة. دوري أن أكون هنا، مع المواطنين، ومع المقاتلين.

. . لقد وجد بعض المثقفين وقت الحصار ملائماً لتصفية حساباتهم الصغيرة. فشرعوا أقلامهم السامة في صدور زملائهم. وعبثاً كنا نصرخ: مالكم وهذه الصغائر. فليس أحد من الكتاب هو الذي يحاصر بيروت. وليس تقصيرهم أوهروبهم هو الذي يهيل البنايات على سُكانها. وفي أسوأ الأحوال ليست كتابتكم هذه أدباً. وليست مدافع فعّالة مضادة للطائرات في أفضل الأحوال. كلا ـ يقولون: هذا هو المحك الأول والأخير لثورية الكاتب والشاعر. فإما أن تولد القصيدة الآن، وإمّا أن تحرم من حقّها في الولادة. وكنا نسخر: ولماذا أذنتم لهوميروس أن يكتب الالياذة والأوديسة؟ ولماذا سمحتم لأنجيليوس ويور بيدوس وأرسطوفان وتولستوي وغيرهم؟ ليس ردُّ الفعل واحداً ـ أيها الكتاب ـ فمن يستطيع الكتابة الآن فليكتب. ومن يستطيع الكتابة بعد الآن فليكتب. وإذا أذنتم لي بأنْ أُبدي رأيي ـ دون اتهام ـ فسأعبر عن ظنّي بأن الجرحى والعطاش والباحثين عن الماء والخبز والملجأ لا يطالبونكم بالغناء، والمقاتلين لا يكترثون بغنائكم. غنوا إذا شئتم، أو فاصمتوا إذا شئتم. فنحن هامشيون في الحرب. وفي وسعنا أن نقدّم خدمات أخرى للناس، فإن تنكة من الماء تساوي وادي عبقر. المطلوب منا الآن هو الفاعلية الإنسانية لا الجمالية الإبداعية. فلتوقفوا عمليات الاغتيال: وماذا لو انهارت أعصاب الناقد وخرج من بيروت؟ وماذا لو عجز الكاتب المسرحي عن اجتياز الشارع من الخوف؟ وماذا لو أضاع الشاعر إيقاعه قليلاً؟ ألأنّ الناقد لم يُعْجَبْ برواياتكم وقصائدكم تضربون عليه الحصار وتقصفونه بالتشهير؟

لقد اعتادت الأوساط الأدبية العربية أن تطرح سؤال الشعر في سياق الحرب المندلعة، استجابةً للراسب الثقافي فينا الذي يربط صيحة الحرب بحماسة الشعر، باعتبار الشاعر معلقاً على الأحداث، حاضّاً على الجهاد، أو مراسلاً حربياً. في كل معركة يقولون: أين القصيدة؟ لقد اختلط مفهوم الشعر السياسي مفهوم الحدث، معزولاً عن السياق التاريخي..

وفي هذه اللحظة المحددة، حيث تحرث الطائرات أجسادنا، يطالب المثقفون المتحلقون حول جسد غائب بقصيدة تُعادل قوة الغارة أو تقلب موازين القوى على الأقل. إذا لم تولد القصيدة «الآن» فمتى تولد؟ وإذا وُلدت فيما بعد، فما هي قيمتها «الآن». سؤال بسيط ومعقّد يحتاج إلى جواب مُرَكَّب كأن يُتاح لنا القول إن القصيدة تُولد الآن: تولد في مكان ما، في لغة ما، في جسد ما، ولكنها لا تصل إلى الحنجرة والورق. سؤال بريء يحتاج إلى جواب بريء لولا أنه مليء في هذه الجلسة ـ بالرغبة في اغتيال الشاعر الذي جرؤ على الإعلان بأنه يكتب صمته.

ومن المثير للمرارة أن ننتزع من زمن الغارات هذا الوقت للثرثرة، وللدفاع عن دور الشاعر الذي يستمد خاصيته من تاريخ كتابة الشعر في علاقته بتطور الواقع، أمام لحظة يتوقف فيها كل شيء عن الكلام، لحظة تصوغ فيها الملحمة الشعبية تاريخها وابداعها الجماعي. بيروت هي الكتابة الابداعية المثيرة. شعراؤها الحقيقيون ومنشدوها منهم مقاتلوها وناسها الذين لا يحتاجون إلى ترفيه وتشجيع على عود مقطوع الأوتار. هم التأسيس الحقيقي لكتابة ستبحث طويلاً طويلاً عن المعادل اللغوي لبطولتهم وحياتهم المدهشة. فكيف تستطيع الكتابة الجديدة، المحتاجة إلى كسل، أن تتبلور وتتشكّل في أوج معركة لها هذا الايقاع الصاروخي؟ وكيف يستطيع الشعر التقليدي ـ وكُلّ الشعر تقليدي في هذه اللحظة ـ أن يصف هذا الشعر الجديد المختمر في بطن الزلزال؟ صبراً أيها المثقفون! فسؤال الحياة والموت المهيمن الآن، سؤال الإرادة التي تدفع بأسلحتها كلها في هذه الساحة،

سؤال الوجود الذي يصوغ شكله المادي والألوهي، أهم من السؤال الاخلاقي عن دور الشعر والشاعر. ومن اللائق أن نحترم الرهبة التي تنشرها هذه الساعات، ساعات انتقال الوجود الانساني من ضفّة إلى أخرى ومن طور إلى طور. ومن اللائق أن يعرف الشعر القديم كيف يصمت، في خشوع أمام حضرة هذا المولود الجديد. وإذا كان من الضروري أن يتحول المثقفون أو بعضهم إلى قنّاصة، فليحاولوا قنص مفاهيمهم القديمة وأسئلتهم القديمة وأخلاقهم القديمة، نحن الآن لا نصف بقدر ما نوصف نحن نولد تماماً أو نموت تماماً..

ولكن صديقنا الكبير، الباكستاني فايز أحمد فايز كان مشغولاً بسؤال آخر: أين، الرسامون؟

قلت: أيُّ رسامين يا فايز؟

قال: رَسَّامو بيروت

قلت: ماذا تريد منهم

قال: أن يرسموا هذه الحرب على جدران المدينة

قلت: ماذا دهاك يا فايز، ألا ترى سقوط الجدران؟

* * *

.. لماذا أرى الطاووس، الطاووس العجوز، يدبُّ على عصا من عاج، مدججاً بمسدسين، مترعاً بالزهو، ثملاً بالهجاء، مفتوناً ببُصاق مُتَوَّج؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، سارق الريش الملون، يرشوني بابتسامة حاقنة، ويغمد خنجراً في نُخاعي؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يرمي عليَّ رائحة العرق والعرق ويحاول أن يُقبِّل حذائي، ليدس لي قبراً تحت الحذاء؟

لماذا أرى الطـاووس العجـوز، يشرئبُّ إلى المقعد والجدار، ليطلَّ على قلبي ويسـرق حزن الليمـون، ويعربه إلى قبطان سفينة لا تصل، ظنها سفينة نوح ولم تصل؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مزداناً بنعل حصان قتيل ظنَّها وسام الشرف؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مدججاً بمسدسين: واحدٍ لقتلي، وواحدٍ لقفاه الجَشِع؟

لماذا أرى الطاووس العجوز؟

لماذا أرى الطاووس؟

لماذا أرى؟

لماذا؟

* * *

احـترق المكتب، قذيفـة بحـريـة جعلتـه مخزنـاً للفحم. احـترق قبل وصولنا بساعات. أين نجد مكاناً آخر لتتابع الثرثرة: مهنتنا الخالدة في الحرب وفي الهدنة. الثرثرة. أين نتابعها: نخرج، أم لا نخرج؟ فقد حسب المثقفون المنصهـرون في ورشـة الصمـود الـرائعـة انصهـاراً مدهشاً أن هذا السؤ ال هو سؤ الهم. وحسبـوا أن لهم حقَّ الفيتـوعلى القـرار السيـاسي. وكـان بعضهم يعتقد أن نشرة «المعركة» هي التي ستحدد مصير المعركة. وقرروا أن هذا المنبر الشجـاع هو الـذي سيشهـد للتـاريـخ أن المثقفين هـم الذين يقودون انعطاف التاريخ. ما أجملهم! ما أجملهم!

السـاعـة الحـادية عشرة، وعشرون ألف قذيفة، وثلاثون ثانية، خرجنا من المكتب المحـترق إلى فضـاء مشتعل. السماء تعانق الأرض عناقاً دُخانياً. تتدلّى مثقلة بالرصاص المصهور، برماديّ داكن لا يفتح انغلاقَهُ العدميّ سوى لون برتقالي تَبُولُهُ الطائرات الفضية المائلة إلى بياض الوهج. طائرات رشيقة، خفيفة، تشب على هواء آمن كأنَّ فيه أخاديد.

قال «ز»: هيَّـا بنـا. قلت: إلى أين؟ قال: نبحث عن أيِّ شيء، عن غداء مثلاً. ما الحالة؟. زفت. شروط الخروج مذلة، ونحن نناور، نحاول أن نشتري الوقت. بأي ثمن؟ بأي ثمن.. بمـدافـع مضادة للطائرات نفدت ذخيرتها، ببطولة شباب حيرّوا العلم العسكري وحيرّوا الجنون. إلى متى؟ إلى أن يحدث شيء ما لن يحدث. لم يحدث تغيـير. ما زلنـا وحـدنـا. هل سيـدخلون بيروت؟ لن يدخلوا بيروت. سيتكبـدون خسـائر لا يتحملون نتائجها. ولكنهم يحاولون قضم أطراف المدينة، حاولوا عند المتحف وفشلوا. معنـويـات الشبـاب عاليـة، عاليـة جداً. إنهم أشبـاه شيـاطين. يائسون من النجدة. يائسون من تحرك العالم العربي. يائسون من التوازن الاستراتيجي، ولـذلـك يقـاتلون بجنـون. هل يبلغهم حديث الخـروج؟ نعم، يبلغهم ولا يصدقون. يقولون: تلك مناورة، ويقاتلون. ويعرفون أن هذا الصمت الذي يتـوِّج العـالم يعطيهم منصَّـة الكـلام. دمهم وحـده هو الـذي يتكلَّم في هذا الـزمن. ومـاذا سنكتب في «المعـركة» أمام حديث المفاوضات والخروج؟ ندعو إلى القتال والصمود. ندعو إلى الصمود والقتال:

بيروت من الخـارج: محاصـرة بالـدبابات الاسرائيلية وبالشلل العربي الرسمي. بيروت غارقة في الظلام والابتزاز. بيروت تعطش..

ولكن بيروت الـداخـل، بيروت من الداخل، تعد حقيقتها الأخرى، تمتلك إرادتها. وترفع بنادقها لتحافظ على إشراق معانيها: عاصمة الأمل العربي..

بشعار «إنقاذ» بيروت الجهنمي، السلس، القاتل كالسم الناعم، يُراد لهذا الأمل أن ينتحر في مسادة عربية منقولة عن الذاهبين إلى انتحارهم في أوج انتصـارهم والشـرط الـوحيـد الـذي يضعـه مبتكـرو لفظـة «الانقـاذ» هو: الاستسـلام. استسـلام تاريخ من المعـاني المسقيَّـة بالـدم. استسـلام كامل الغضب استسلام كل السلاح. استسلام بلا تكاليف.

ولكن، هل يعرف خبراء صناعة الابتزاز ما معنى هذا اليأس، ما نتائج هذا اليأس؟ لا نقول ابتزازاً مضاداً، ولا نُهدِّد بسقوط الهيكل علينا وعلى أعدائنا وعلى حلفائنا. ولكننا نَشهر حريتنا الوحيدة وشرطنا الوحيد على مائدة المفاوضات: أن نقاتل.

بيروت ليست رهينة. ونحن فيها خلف متاريسنا لا نرهن حياتنا لغير المستقبل، ولتجدُّد دورة الدم في عروق الأجيال كُلِّها. إذ لا خيار لنا إلا الاحتفاظ بشرط حياتنا الحاضر: السلاح. السلاح الذي يعني تجريدُنا منه تجريدَنا من أداة الوجود، ومن حماية شعلة أوقدناها بغابة من أشجار دمائنا، ومن الاستمرار في إيقاظ القارة العربية النائمة تحت قمع الأنظمة.

إن صمودنا في قلعة بيروت، غير القابلة للتدمير، هو الأداة الوحيدة لتحريك العملاق العربي المتمدِّد ما بين شاطئي محيطين. وهو الأفق الوحيد المطلّ من فوهة بندقية ومن ثقب جزمة مقاتل، ومن جرح يضيء في هذا العصر الأسود..

هكذا.. هكذا نفك الحصار عن بيروت، وعن غضب الملايين..

وهكذا تكون صورة بيروت من الداخل نقيض صورة بيروت من الخارج..

.. وهكذا كنا نكتب، فماذا نكتب الآن؟

قال «ز» بلا تردد: الكلام إيّاه. وما هو رأي الناس، أهل بيروت؟ قال: مع الصمود، قلت: مع الصمود حتى الخروج.. هل نستطيع أن نتجاهل ذلك؟ قال: لا نستطيع أن نتجاهل ذلك، ولكن ما العمل؟ ما العمل؟.

* * *

صوت يشذ عن الأصوات المألوفة، لا لأنه أقوى، بل لأنه مختلف وبعيد. صوت يسرق المكان ويهرول. صوت يقصُّ الفضاء ويُحدث تجويفاً في الضوء.

هيًا بنا.. لم نعبر طريق الروشة منذ أيام. شارع عريض مهجور يتوسَّع من غياب الخطى، كأنه ملكية خاصة للبحر. بنايات تدخن. نار تهبط من أعلى إلى أسفل. حريق مقلوب. نوافذ تشيخ وتتساقط على مهل. وتصل إلينا استغاثات الطوابق العليا واضحة جارحة. ناس تحاصرهم النار والانهيارات التدريجية الخارجة من هول الصدمة الأولى. رجال الاسعاف المدني كانوا هناك، يحاولون إنقاذ اللحم البشري المعجون بالحديد والاسمنت والزجاج.

لا أستطيع أن أشيح بوجهي عن مشهد المكان المجروح. للدم على الأرض وعلى الجدرن جاذبيَّة الوحشية. لا أستطيع أن أنصرف ولا أستطيع أن أُخمد إحساس العجز. الزحام شديد. يدعونا رجال الدفاع المدني إلى الانصراف لأننا نعرقل مهمتهم، ولأن الطائرات ستعود لتقصف هذا الحشد الشهيّ. بلَّل وجهي ماء ساخن يبعثه احتقان الغيظ. شدَّني صاحبي من ذراعي: هيا بنا، هيا بنا.

أغاروا من جديد. من جديد أغاروا. ما هذا اليوم؟ هل هو أطول يوم في التاريخ؟ نظرت إلى البناية المقابلة، نظرتُ إلى مكتبي الصغير نظرة وداع أخير.

* * *

موجة من بحر، كنت أتابعها من هذه الشرفة، وهي تتكسر على صخرة الروشة الشهيرة بانتحار العُشَّاق..

موجة من بحر تحملُ بعض الرسائل الأخيرة، وتعود إلى الشمال الغربي الأزرق، والجنوب الغربي اللازوردي، ترجع إلى شواطئها وقد طرَّزت انكساراتها بالقطن الأبيض. .

موجة من بحر، أعرفها، ألاحقها بالشجن، وأراها وهي تتعب قبل بلوغ حيفا، أو الأندلس. تتعب فترتاح على شواطىء جزيرة قبرص.

موجة من بحر، لن تكون أنا. وأنا، لن أكون موجةً من بحر. .

* * *

كم أحببتُ هذا المكان، المهدّد بالتلاشي منذ البداية، ماذا نُهديك؟ نباتات وورداً. زهوراً ونباتات. حوَّلتُهُ إلى ما يُشبه العش. أردت له أن يكون نصّاً من نُصوص المجلة. حروف بُنيَّة مطبوعة على ورق أصفر ويُطلُّ على بحر. أردتُ له أن يكون مزهرية ثابتة على صهوة جواد جامح. أردتُ له شبهاً بالقصيدة. ولكن لا نكاد نُعلِّق لوحة حتى تنفجر سيارة مُفَخَّخة تحت، وتطيح بكل ترتيب. وما كدت أسند رأسي على مرفق يدي اليسرى، في انتظار فنجان القهوة، حتى وجدت نفسي خارج المكتب. لقد رفعني دويٌّ الانفجار، كما أنا بقلم الحبر والسيجارة، ووضعني سالماً أمام المصعد. وجدتُ وردة على قميصي. وبعد دقيقة حاولت العودة إلى المكتب الذي اختفى بابه وتحوَّل إلى ساحة من زجاج مكسور وورق متطاير، فتصدَّى لي الانفجار الثاني ليبقيني متجمداً قرب المصعد، ردَّ الحارس الفتي على الانفجار بطلقات من مسدسه. ماذا تفعل؟ قلت. قال: أطلق النار. قلت عَلاَمَ تطلق النار وفي أيِّ إتجاه؟ لعلَّ أحداً لم يسأله هذا السؤال من قبل، لذلك استهجنه، فهكذا يحدث دائماً. رد الفعل الفوري، التلقائي، وربما الغريزي، على أي حدث أو إحساس عنيف أو خبر أو إصابة كروية هو: إطلاق النار. مجزرة جديدة على الروشة: عشرون قتيلاً آخر من هذه الحُمَّى الجديدة: حُمَّى السيارات

المفخخة التي أتقن «الموساد» صناعتها مع عملائه المحليين. لقد مهدت هذه السيارة لعملية الغزو، مهدت الأرض النفسية لتحويل هذا الحصار إلى حادث طبيعي. أحصنة طروادة معاصرة تصهل في الوعي: لا أمن ولا أمان في بيروت الغربية. وكل سيارة واقفة على رصيف هي وعد بالموت.. فليدخل البرابرة!

* * *

موجة من بحر في يدي. تتسرب وتفلت. تناور حول صخرة صدري، ثم تقترب، ترتخي، وتستسلم. تستعين، لئلا تعود إلى طبيعتها، بشَعْر الصدر. حَرٌّ ورطوبة. موجة كالقطة تقضم تُفَّاحة. ثم تقبّلني بطيش العابث: يحق لي أن أحبك. يحق لك أن تحبني. ليس الحب حَقّاً، يا قطة، وأنا الآن في تمام الأربعين.. تنزوي في ركن: وأنا نصفُ قمرٍ أُنثوي يتبع ذكراً. حرٌّ ورطوبة. ولكن الجسد الصغير مُكَيَّف: دافئ في الشتاء. طريٌّ في الصيف. جسد طازج كشاطئ بحر جديد لم تلمس الحيوانات الصغيرة طحلبه بعد. ينزلق ويبتعد. يحترق ويقترب. وتفصلني عنه رائحةُ حليب. لم لا نُعلّق آب على كرسي؟ لم لا نسبح في بياض النوم؟ ونغطّي عينين لامعتين ليلاً. لأنك صغيرة. تزأر: لستُ صغيرة. أنا نصف قمر أُنثوي يتبع ذكراً!. يتبع رائحة الهال. ألا تحقُّ لي السباحة؟ ولكن، ليس هذا البياض بحراً. تغضب وتقضم تفاحةً وأظافر يدها. أجمع الشفتين بإصبعيّ لتكبرا قليلاً.. لتصيرا قبلة. ها أنت تحبني. اعترف بأنك تحبني. قل لي إنك تحبني. فلماذا لا تشرب ملحي؟ لأن العطش يكسر أناقة روحي. تغضب وتعود إلى الركن، تقرفص في الركن: لا أريد الشِعْر.. لا أُحبُّ الشِعْر..

أُريد الجسد.. أريد قطعة جسد.. جبان! جبان من أجلكِ لا من أجلي. ما شأنك أنتَ بما هو لي. أنا حرة في ما أملك. تقف. تقترب. يخشوشن مُواؤها: أعطني شيئاً ألعب به. أعطني لعبة.. أيّة لعبة.. قطّاً صغيراً مُتَوَتّراً مشدوداً أمرِّر عليه يدي برفق إلى أن يسيل لُعَابُهُ على صدري..

كانت الموجة توشك على الغرق، لولا انفجار عنيف هزَّ صخور البحر، فطارت الموجة إلى الطريق . . وطرتُ إلى السرير.

* * *

. . منذ ساعة، لم أتبادل الكلام مع صاحبي «ز». يقود سيارته بلا هدف: أين أنت؟ سأل كلانا الآخر. قلت: أنا أعرف أين كنت. قل الحقيقة، أما كنت هناك تفعل أمراً إدًا مع زوجة الطيار؟ اندهش: كيف عرفت؟ قلت: لأنني عائد من أمر مشابه. لهذا عرفتُ إلى أين يأخذنا الموت . .

قال: آن لنا أن نأكل. قلت: السردين مرة أخرى؟ قال: أي شيء. لم يكن هذا الـ «أي شيء» أي شيء. فجأة أوقف سيارته وصاح: خروف مذبوح ـ كنا في أول شارع الكومودور القادم من الروشة. عرفنا البائع. لم يكن جزاراً. كان صانع جنازات. يلتصق بأي قائد في أية جنازة ليظهر في المشهد والصورة. قلت: كم في ظاهرتنا من مفارقات. ومن حسن حظِّي أني لستُ كاتباً مسرحياً لئلاَّ أكتب عن الجانب الآخر للصورة. هل تعرف أن عين الكاتب سلبيّة، كما أن أُذن القائد سلبية. تفتنها المفارقة الجارحة هنا والنميمة هناك. لقد شاعت النميمة في حياتنا بشكل مُدَمِّر. وكانت مصاحبة لظاهرة التضخم الذاتي، لتمدُّد الجسد وانكماش قلق السؤال. فُتحت مكاتب بأكملها، مكيفة الهواء، صالونات للنميمية وبَثِّ الشائعات. وازدهرت تجارة الشهداء عند بعض التنظيمات الصغيرة: ما زلنا في حاجة إلى عشرين شهيداً لنملأ القائمة، وصراع مسلح على شهيد مجهول التنظيم. وإعدام مقاتل رفض إطلاق الرصاص على صديق له ينتمي إلى تنظيم آخر، فألقوا بجثته في بئر مهجورة إلى أن عثرت عليها العرَّافة. و. .

قاطعني «ز»: سأريك الليلة لعبة الكاميرا والظل . .

قلت: لا أريد.

قال: أين سنأكل. نحتاج إلى فحم وإلى بناية شبه آمنة. دهشنا حين رأينا السماء زرقاء صافية لا تعكرها أية طائرة. منذ دقيقة لم تمر الطائرات تعبوا؟

امتلأت الشقة الآمنة في البناية، شبه الآمنة، في ساقية الجنزير بالأصدقاء الجياع. خرج الناس من الملاجىء. لا طائرات. . لا طائرات. قال أحدهم: أين كُتُبُ باختين؟ رد آخر: لقد حملها الناقد ـ وهو ساكن الشقة ـ ورحل. حاول البعض أن يُشَهِّر. قال آخر: كفى، فنحن في حاجة إلى فلسطيني حيٍّ يهتم بالماركسية وعلم اللغة. اعتبروا ذلك فاتحة نميمة وتأهبوا، لكن عاصفةً من الطائرات هَبَّتْ علينا لتنقذ الناقد الغائب وترمينا إلى الشارع.

. . . . وهذا الصوت لاتعرفه من قبل. خفيض، بعيد، عميق، سريّ، كأنه صاعد من جوف الأرض، كأنه صوت القيامة المهيب. شعرنا جميعاً ـ وقد صرنا خبراء في علم الأصوات القاتلة ـ بأن شيئاً غير عادي، في هذه الحرب غير العادية، قد حدث. وبأن سلاحاً جديداً قد جُرِّب. متى ينتهي هذا اليوم الطويل؟ متى ينتهي لنعرف إن كنا أحياء أم موتى!

قال الحامل فخذ الخروف: ماذا نفعل بفخذ الخروف؟ تجاهلنا سؤاله الجشع. لكنه ألحّ بالسؤال السخيف، ونحن مشغولون بالعثور على ما يَلُمُّ أشلاءنا. . ألح حتى قلت له: خذ هذه اللحمة إلى أقرب ملجأ، أثقبها. وانكحها. وخلصنا منها ومنك!

ولكن ذلك الصوت البعيد حَرَّكَ فينا قلق الغابات الأولى السحيقة.

مشيت أنا و«ز» وراء مخاوفنا. كانت «حديقة الصنايع» تشهد أحد مظاهر يوم الحشر. مئات الخائفين يحيطون بتابوت حجريّ ضخم. الوجوم يحمل ثقل المعادن تحت شمس محجّبة بجميع ألوان الرماد. نندسّ بين الحشود لنجد

مكاناً للتطلّع خلف الأكتاف المتزاحمة، خلف السياج البشري المشدود على خوف وغضب، فنرى:

بناية ابتلعها قاع الأرض،

اختطفتها أيدي الوحش الكوني المتربّص بالعالم الذي ينشئه الانسان على أرض لا تطلّ إلاّ على شمس وقمر وهاوية.. ليوقعه في حفرة لا قاع لها، حفرة ندرك على حافتها أننا لم نتعلّم المشي، والقراءة، واستعمال اليد، إلاّ لنصل إلى نهاية ننساها، ننساها لنتابع البحث عن مُبرّر لهذه الملهاة، لنكسر خيط العلاقة بين البداية والنهاية، لنتوهم أننا استثناء الحقيقة الوحيدة.

ما اسم هذا الشيء؟

قنبلة فراغية، تحفر ما تحت الهدف فراغاً هائلاً يُجَرِّد الهدف من قاعدة يجلس عليها، فيمتصه الفراغ ويحوله إلى مقبرة مدفونة، بلا تعديل ولا تغيير. وهناك، تحت، في الحيِّز الجديد، يواصل الشكل الاحتفاظ بشكله. ويواصل سكان البناية الاحتفاظ بهيئاتهم السابقة، وبآخر أشكال حركتهم المختنقة. هناك، تحت، تحت ما كان تحتهم قبل ثانية، يتحولون إلى منحوتات من لحم، ولكن لا حياة فيه حتى للوداع. فمن كان نائماً يظلّ نائماً. ومن كان يحمل طبق القهوة يظلّ حاملاً طبق القهوة. ومن كان يفتح النافذة ظلّ يفتح النافذة. ومن كان يرضع من ثدي أمه ظل يرضع من ثدي أمه. ومن كان نائماً على زوجته ظلّ نائماً على زوجته.. ولكن الذي كان واقفاً على سطح البناية، بالمصادفة، استطاع أن ينفض الغبار عن ثيابه وأن يهبط إلى الشارع من غير حاجة إلى استعمال المصعد فقد سُوِّيت البناية بمستوى سطح الأرض. لذلك بقيت العصافير، حيةً، في أقفاصها الجالسة على السطح.

لماذا فعلوا ذلك؟. القائد كان هنا.. وغادر منذ قليل. هل غادر حقاً؟ لقد نقله سؤالنا الخائف من أب إلى ابن. ولم نجد وقتاً لمحاكمة السؤال: وماذا لو كان هنا، فهل يُبرّر ذلك لهم إبادة مائة إنسان؟ كان سؤال آخر يشغلنا: هل نجا من محاولة اغتياله بالطائرات وبأحدث سلاح: القنبلة

الفراغية؟ . كان أمس يلعب الشطرنج أمام الكاميرا الأميركية ليدفع بيغن إلى مزيد من الجنون، وليحرمه من لياقة الشتيمة السياسية واستبدالها بالشتيمة الانسانية «هؤلاء الفلسطينيون ليسوا بشراً. إنهم حيوانات تدبُّ على أربع» كان عليه أن يجردنا من الصفة الانسانية ليبرِّر قتلنا، فان قتل الحيوانات ـ إذا لم تكن كلاباً ـ ليس محرماً في الشريعة الغربية. كان بيغن يستعيد تاريخ جنونه وجرائمه، فقد ظنَّ أن جنوده، صيَّادي هذه الحيوانات، يقومون بنزهة صيد، فأُلقيت في وجهه مئات التوابيت المرفوعة على آلاف تصرخ: إلى متى؟ ولسنا بشراً لأننا لم نسمح له بدخول عاصمة عربية. وهو لا يستطيع أن يصدِّق أن البشر هم الذين يحولون دون تحوُّل الخرافة إلى محكمة مطلقة لمحاكمة كُلِّ القيم وكل البشر في كل زمان وفي كل مكان، محكمة مطلقة وأبدية. لذلك أحال طبيعة من يقاومه إلى طبيعة غير بشرية، إلى طبيعة حيوانية، بعدما أغلقت عليه خرافته جميع منافذ سؤال ممكن: مَنِ الحيوان؟ لقد انقضت على حلمه، وعلى حلم يقظته، أشباحٌ من أبادهم في دير ياسين، وغيَّبهم عن المكان والزمان، غيَّبهم ليشترط حضوره، في المكان والزمان، بذلك الغياب.

ولكن تلك الأشباح تحاصره في بيروت وقد استعادت لحمها وعظمها وروحها استعادة بطولية. عاد الشَّبَحُ من الضحية إلى البطل. وبين الشبح والبطل حُصرَ نبيّ الكذب بهوس أقعده عن الاستعانة بفصول من التوراة كانت قادرة على أن تكتب، وحدها، تاريخ البشر.

* * *

«. . وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة، فتكون المدينة وكُلُّ ما فيها محرماً للرب. راحاب الزانية فقط تحيا هي وكُلُّ من معها في البيت لأنها خبأت المُرْسَلَيْنْ اللذين أرسلناهما. وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تُحْرَقُوا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلة إسرائيل مُحَرَّمة وتكدروها. وكُلّ الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب. فهتف الشعب وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرَّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السيف، وقال يشوع للرجلين اللذين تجسَّسا الأرض ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها. فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل ما لها وأخرجا كُلَّ عشائرها وتركاهم خارج محلَّة إسرائيل. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع رحاب الزانية وبيت أبيها وكل مالها. وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم. لأنها خبَّأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسَّسا أريحا. وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلاً ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا».

[سفر يشوع]

* * *

. . وكان القائد يلعب الشطرنج. لقد أحسن التلاعب بأعصاب بيغن المتدلية كأسلاك الكهرباء على مزبلة الأوزاعي. كان الرجل المُحَاصَرُ في بيروت يحاصر، على رقعة الشطرنج، ما لا يُفصح عنه. كان يحاصر في قراءتنا الخاصة أكثر من ملك وقف خارج اللعبة. ويحاصر أكثر من رقعة. كان يخاطب الكناية، ويُؤَجِّل إذاعة خطب التأبين المليئة بالدموع الملكية والجمهورية والجماهيرية المعدة منذ شهر، منذ طمأن التقدمُ الاسرائيلي خطباءنا الرسميين إلى مسافة الغز والمقترح، المبارك بصمت جليل، لحماية أمن الجليل من مدى الشوق المُسَلَّح الذي يحمله أبناء الجليل إلى أرض الجليل.

هل كان هنا منذ قليل؟ هل خرج من هنا؟

رأيتُ أحد مرافقيه الذين لا يكذبون عليّ، فازددت قلقاً. همس في أذني: إنه ليس هنا. لقد غادر المكان. وأضاف: وعليك أنت أيضاً أن تغادر فوراً، فهذا الزحام يُغري صَيَّادي الجو بغارة أخرى. .

كان هذا الشاب هو الذي عثر عليَّ، قبل أيام، في أحد المكاتب وهمس في أذني: تعال معي! فهمتُ الاشارة، ولم أسجل إلى أين أنا ذاهب. توقعت كُلَّ شيء إلاَّ أن أجد نفسي، وجهاً لوجه، أمام هذا الرجل ذي الملامح الألمانية جالساً مع القائد. قال لي: هل تتذكرني. . أنا أروي. غضبت. ولكنني قلت مازحاً: ماذا. . هل دخلتم بيروت، أم وقعت في الأسر؟ قال: لا هذا ولا ذاك، جئتُ من الأشرفية لأجري مقابلة صحفية مع السيد عرفات. غضبت أكثر ولم أعلِّق. بيروت مليئة بمندوبي كل الصحف العالمية. أمن الضروري أن يجري هذا الحوار مع هذا الصحفي في هذا الوقت؟ لكل مقام مقال. وهذا المقام ليس لهذا المقال. ولكن لعرفات نظرة أخرى إلى الاعلان. فربما أراد أن يوصل رسالة مباشرة؟ ربما أراد أن يُمَرِّغ بيغن في مزيد من الجنون. كان أبو عمار أهدأ من الرسالة التي شاء إبلاغها للرأي العام الاسرائيلي المضطرب. حين سأله الصحافي إلى أين سيخرج حين يخرج من بيروت؟ أجاب بلا تردُّد: سأذهب إلى بلادي. سأذهب إلى القدس. لم أتأثر

بهذه اللغة بقدرما تأثّر بها الاسرائيلي واغرورقت عيناه بدموع الخجل. وأضاف أبو عمار: لم لا؟ لم لا أذهب إلى بلادي؟ لماذا يحق لك أن تذهب إلى بلادي ولا يحقُّ لي أن أذهب إلى بلادي؟ ساد صمت، وانقطع الحوار. ازدادت المصورة ومساعدة الصحافي تحديقاً إلى وجه العدو الأسطوري. سألتني إحداهما: أين كوفيته الشهيرة؟ قلت لها: في كل مكان. ولكنه يرتدي الآن القبعة العسكرية لأنه يحارب. ازدادت التصاقاً به فقلت: هل أعجبك الرجل؟ إنه عازب. قالت: أعجبني كثيراً..

أما أنا، فلم تعجبني المقابلة، ولا خِفَّةُ صاحب الشقة الذي زَجَّ بأفراد عائلته في عدسة الكاميرا الاسرائيلية لا لشيء.. إلّا ليرى أهلُهُ هناك صورة سعادته هنا! قلت لنفسي: من واجبنا أن نعرف لمن نشتاق: للبلاد، أم لصورتنا خارج البلاد أم لصورة شوقنا للبلاد داخل البلاد!

* * *

أين «س» ديكُ الحيِّ الفصيح؟ عاشق المسدسات، واللغة، واللحم المُعْلَن. لم أره منذ يومين. هل وجد طعاماً وماء؟ كان هذا هاجسي. ومنذ تَبَنِّيْتُهُ كان نادراً ما يتكلم معي حين نكون وحيدين فلعلَّهُ صدَّق أني أبوه. ترك الحي الذي كان يسكنه قبل الحصار وجاء إلى هنا ليقيم مع شاب لبناني سرياني الأصل. أين السرياني وأين الكردي؟ تصادقا منذ اليوم الأول للحصار. أحدهما متوتر كعضلة وثانيهما بارد كقمر. كان «س» يبحث عن «ج» وكان «ج» يبحث عن اختفاء يوحي بأنه شهيد. وحين يلتقيان يشتم أحدهما الآخر، ثم يخرجان إلى شوارع الحمراء، مدججين بكامل السلاح والامتلاء،

كأنهما يحرسان الهواء من الاختراق ومن ثورة مضادة. أحببتُ «س» منذ التقيته من سنين، مستنفراً ضد مجهول. يخجل من الكلام ولا يتدخل فيه إلا ليتوتّر. حاسم صارم ولا يساوم على شيء أو رأي. لا يقول إلاّ للورق الموضوع على وسادة ما فيه من عالم عجائبي، فنتازي، مترع بالفصاحة. ولا أعرف حتى الآن متى يبدأ فيه الروائي، السارد، ومتى ينتهي الشاعر. صفع الحياة الثقافية البيروتية بانفجار مفاجىء. ولكنه يدافع عن كتابته بقبضته وشراسته، لأنه لا يؤمن بالحوار بين المثقفين ويعتبره ثرثرة. يأخذ مُسَدَّسه وعضلاته المزهوة ويذهب إلى المقهى المناسب ليتربص بصغار النقاد في الصفحات الثقافية ويؤدبهم على ما كتبوا ضده. قلت له ذات مرة: هكذا كان يفعل فلاديمير ماياكوفسكي بُنقّاده في شارع غوركي. قال: هذا هو حد نقد النقد الوحيد. لكنه قطع شوطاً، لا تراجع عنه، في عملية الإحالة الذاتية المقطوعة عن حقيقتها، وتوغّل في الملهاة، ليحقق ما ينقص الفروسية: امرأة! اين «س» الآن؟ هل اصطادته الشظايا، أم اصطاد دجاجة ليهديها إلى «ذات الجمال المنقطع النظير»؟

* * *

كان «س» مبتهجاً بالحرب، ففيها يتجلّى مكبوتُ عنفه ويحالف الفوضى. فيها يطلق أعنّة جياده ويَشهر حوافر نشيد لا غبار حوله سوى الرصاص. وفيها يعود إلى عصور الجبال البعيدة، وإلى نايات ترقّصُ البعيد، وإلى الفرسان وقرقعة الخيلاء، وبهاء الفتوة الأولى، وباختصار: فيها يجد ميدان الرياح التي تمتشقه سيفاً طازجاً للمبارزة مع أعداء مَرُّوا. ولا يفهم.. لا يفهم أبداً لماذا يكتب الكُتّاب في الحرب. من يأبه بهم في لحظة القوة؟ يضرب على مُسَدَّسه ويتوعَّد: ينتصر.. سنعفّر انوفهم في التراب. لم يكن يعرف إن كان ينتصر حقاً أم لا، فهو ولَدُ المعارك الخاسرة. وَلَدٌ ضد الحساب. ما يهمه هو التحدّي

والمبـارزة. كان «س» يقف في منطقـة وسطى بين دون كيشوت وسانشو، يُحيل الأعـداء إلى نماذج في متنـاول اليـد. يمتلىء حماسـة فيتكـوَّر ويستطيل ويتوتر ويضـرب أي شيء ثم يُسَلِّط على نفسه حكمـة «ج» المترَوّي، الباحث عن الفلسفـة في الشعـر والمعـادي للغنـائية. ووجـد «س» «ذات الجـمال المنقطع النظير» في غياب الماء واللحم والنساء. احذر يا «س» فهي من صناعة جَدِّك دون كيشـوت، من سُلالـة السحـالي التي تظهر في القيظ والهجير، في أخاديد النفس المتشققة من العطش. وصوتُها صوتُ النبات اليابس في برية الأطلال.

القنبلة الفـراغيـة، هير وشيـما، مطاردة رجل بالطائرات. فلول الجيش النازي في برلين. احتدام الخلاف الشخصي بين بيغن ونبوخذ نصر. عناوين تخلط المـاضي بالحـاضـر. وتـدفـع الحـاضـر إلى الهـرولة. غد يُباع في أوراق اليـانصيب. قدر إغـريقي يتربَّص بأبطـال صغار. تاريخ مشاع، لا أهل له، مفتــوح لمن شاء أن يرث. في هذا اليـوم، في ذكـرى قنبلة هير وشيـما يُجربـون القنبلة الفراغية، في لحمنا. تنجح التجربة.

أتـذكـر من هير وشيـما المحـاولـة الأمـيركية لدفع هير وشيما إلى نسيان اسمهـا. وأعـرف هير وشيـما، زرتهـا منـذ تسـع سنـين. وفي إحدى ساحاتها تكلمتُ عن ذاكـرتهـا. مَنْ يُذَكِّـر هير وشيـما بأن هير وشيما كانت هنا. سألتني المـترجمـة اليابانية إن كنتُ قد شاهدت الشريط السينمائي الشهير. قلت: وفي وسعي أن أُحب امرأة من سدوم لأحب، أو لألعب. في وسعي أن أُحبَّ جسداً يقتلني حُرَّاسـه خلف النـافـذة. قالت: لا أفهم، قلت: هي خواطر شعرية. ولكن أين هير وشيما؟ قالت: هير وشيـما هنـا. أنت في هير وشيـما. قلت: لا أراهـا فكيف غطيتم اسم جسـدهـا بالأزهـار؟ ألأن الطيار الأميركي بكى فيما بعـد. ضغـط على زر صغـير ولم ير إلَّا سحـابـة. وحـين رأى الصور فيما بعد بكى. قالت: تلك هي الحيـاة. قلت: ولكن أمـيركا لم تبك ولم تغضب على نفسها. غضبتْ من التوازن. هير وشيما غداً.. هير وشيما هي الغد.

لا شيء في متحف الجريمة يدل على اسم القاتل: من هنا جاءت الطائرة، من قاعدة ما في الباسفيك. تواطؤ أم خنوع؟ أما الضحية فلا تحتاج إلى أسماء: هياكل بشرية مجردة من ورق الشجر، أغصان عظمية للشكل، أشكال للشكل. بعض الجدائل الدالة على امرأة كانت هناك. كتابات على الجدران تشرح درجات التدرج في القتل: من الحريق، إلى الدخان، إلى السموم، إلى الاشعاع. تدريبات أولى على قتل كوني أشمل. تخطيط أولي للنهاية. هكذا تبدو الآن «ثروة» قنبلة هيروشيما التدميرية، سلاحاً ذرياً بدائياً، يسمح للخيال العلمي بأن يكتب سيناريو لنهاية العالم: انفجار هائل، انفجار عظيم، يشبه بداية تكوُّن الكرة الأرضية، بفوضاها المنظّمة: جبال، أودية، سهول، صحارى، أنهار، بحار، منحدرات، بحيرات، تجاعيد، صخور، وما يتبعه من تنوعات جميلة في أرض تمجدها المدائح الشعرية والصلوات الدينية. بعد الانفجار العظيم يشبُّ حريق هائل يلتهم ما يستطيع التهامه من طعام النار: البشر والشجر والحجر والمواد القابلة للاحتراق، يُنتج دخاناً كثيفاً يحجب الشمس إلى أيام فتبكي السماء مطراً أسود يُسَمِّم كُلَّ شيء حي، يسمونه المطر النووي. تبرد الأرض وتعود إلى عصرها الجليدي الأول، وفي مرحلة الانتقال السريع من هذا العصر إلى العصر الجليدي لن يبقى حياً إلا الجرذان وبعض أنواع الحشرات، يصحو الجرذ، ذات صباح، ليجد نفسه إنساناً يحكم الأرض، كافكا مقلوب. وأنا أسأل: أيهما أقسى: أن يصحو الانسان ليجد نفسه حشرة ضخمة، أم: أن تصحو الحشرة فتجد نفسها إنساناً يلعب بالقنبلة النووية وقد حسبها كرة قدم!..

* * *

سماء بيروت قُبَّةٌ كبيرة من صفيح داكن. الظهيرة المطبقة تنشر رخاوتها في العظام. الأفق لوح من الرمادي الواضح لا يلونه سوى عبث الطائرات. سماء من هيروشيما. في وسعي أن أتناول طبشورة وأكتب على اللوح ما أشاء من أسماء وتعليقات. اجتذبتني الخاطرة: ماذا سأكتب لو صعدت إلى سطح بناية عالية: لن يمروا؟ كتبوها. «نموت ليحيا الوطن»؟ كتبوها. هيروشيما؟ كتبوها. طاشت الحروف كُلُّها من ذاكرتي ومن أصابعي. نسيت الأبجدية. لم أتذكر غير حروف خمسة: ب ي ر و ت.

* * *

جئتُ إلى بيروت منذ أربع وثلاثين سنة. كنتُ في السادسة من عمري. وضعوا على رأسي قُبَّعةً وتركوني في ساحة البرج. كان فيها ترام. ركبت في الترام، سار الترامُ على خَطَّيْ حديد متوازيين. صعد إلى ما لا أعرف. صعد على خطي الحديد وسار. سار الترام. لم أعرف أيهما يُسَيِّرُ هذه اللعبة الكبيرة ذات الجلبة: خط الحديد الممدود على الأرض، أم العجلات الدائرة على خط الحديد. نظرت من نافذة الترام. رأيتُ بنايات كثيرة، فيها نوافذ كثيرة، تطل منها عيون كثيرة، ورأيت أشجاراً كثيرة. الترام يسير عندما يسير الترام. عاد الترام إلى المكان الذي وضعوا فيه قُبَّعةً على رأسي. تلقفني جدِّي بلهفة. وضعني في سيارة وذهبنا إلى الدامور. الدامور أصغر من بيروت وأجمل من بيروت، لأن فيها بحراً أكبر، ولكن ليس فيها ترام. خذوني إلى الترام، فأخذوني إلى الترام. ولا أذكر من الدامور غير البحر وبساتين الموز، ما أكبر أوراق الموز.. ما أكبرها!، والزهور الحمراء المتسلقة على جدران البيوت. وحين جئت إلى بيروت، مرة أخرى، قبل عشر سنين، كان أول شيء فعلته هو أنني اوقفت سيارة تاكسي وقلت للسائق: خذني إلى الدامور.

كنتُ قادماً من القاهرة، وكنتُ أفتّش عن خطى صغيرة لولد مشى خطى لا تليق بعمره، خطى أكبر منه ومن قدميه. عمَّ كنتُ أبحث. عن الخطى أم عن الولد؟ أم عن أهل قطعوا البرية الوعرة ليصلوا إلى ما لم يجدوا، كما لم يجد كافافي إيتكاه؟

كان البحر في مكانه. كان يدفع الدامور شرقاً لتصير أكبر. وصرتُ أنا أكبر. صرتُ شاعراً يبحث عن ولد كان فيه، تركه في مكان ما ونسيه. الشاعر يكبر ولا يسمح للولد المنسيِّ بأن يكبر. هنا قطفتُ الصور الأولى. وهنا تعلَّمتُ الدروس الأولى. وهنا قبَّلتني صاحبةُ البستان، وهنا سرقت الورد الأول. وهنا كان جدي ينتظر العودة في الجرائد ولايعود. جئنا من قرى الجليل.

نمنا ليلة قرب بركة رميش القذرة، قرب الخنازير والأبقار. وفي الصباح التالي سرنا شمالاً. قطفتُ التوت من صور. ثم استقرّ بنا الرحيل في جزّين. لم أر الثلج من قبل. كانت جزين مزرعةً للثلج، وكان فيها شلال. لم أر الشلاّل من قبل. ولم أعرف، من قبل، أن التُّفّاح يتدلى من أغصان الشجر. كنتُ احسبه ينبتُ في الصناديق. نحمل السلال القصبية الصغيرة ونختار التُّفّاح عن الشجر. أريد هذه الحبَّة، وأريد تلك الحبة. آخذها وأغسلها في جداول المياه الهابطة من سفح الجبل إلى مجاريها الصغيرة بين البيوت الصغيرة المتوجة بالقرميد. وفي الشتاء لم نتحمل برودة الرياح اللاذعة فرحلنا إلى الدامور.

غروب الشمس يسرق الوقت من الوقت. والبحر يتلوّى كأجساد العاشقات ليرفع صرخته في الليل ولليل. ذهب الولد إلى أهله هناك في البعيد، في بعيدٍ لم يجده هناك في البعيد. مات جدِّي وهو يُحدِّق إلى تراب محبوس خلف سياج، إلى تراب غيّروا جلده من قمح وسمسم وذرة وبطيخ أحمر وأصفر إلى تفاح خشن. مات جَدِّي وهو يَعُدُّ الغياب والمواسم ودقات القلب على أصابع يدين يابستين. سقط كالثمر المحروم من غصن يُسْند عليه عمره. لقد خرَّبوا قلبه.

تعب من الانتظار هنا في الدامور. ودّع اصدقاءه وأرجيلته وأبناءه وأخذني وعاد ليجـد ما لم يجد هنـاك، وهنـا كثـر الغـربـاء واتّسعت مخيماتهم. مرت حرب.. حربان.. ثلاث.. أربع، وازداد الوطن ابتعاداً عنهم، وازداد الأطفال ابتعاداً عن حليب امهـاتهم بعـدما شربوا حليب وكالة الغوث. فاشتروا بنادق ليقربوا البـلاد الهـاربـة من أيديهم. أعادوا هويتهم، وأعادوا تركيب الوطن من جديد وسـاروا على الطـريق، فاعـترضهم حُرَّاسُ الحـروب الأهليـة، فدافعـوا عن خطـاهـم، فخـرج الطـريقُ عن الطـريق. وسكن اليتيمُ جلد اليتيم، ودخـل المخيَّم في المخيم.

* * *

لا أستطيع أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، حتى لو كان متراساً لقناصة أرادوا روحي. لا أستطيع ولا أستطيع، فلتبعدوا هذا المُصَوِّر عن وجه الحجر. أبعدوا هذا الخطاب عن بحرٍ ما زال جالساً على مكانه. ولا أستطيع أن أرفـع شهيـدي على كتف جثّة معلقـة على أغصان الموز.. لا أستطيع. «الحرب هي الحرب» ليست لغتي. لن أقرأ شعراً في الدامور. و«ما العمل تجاه ما يقطع المخيم عن المخيم» ليس سؤالي.. ليس سؤالي أبداً أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، لأني أبحث عن وَلد، ولا أبحث هنا عن بَلَد..

* * *

وفي أنقـاض الـدامـور، وجـد أبناء الشهداء والناجون من «تل الزعتر» ملجأ آخـر في سلسلة الملاجىء المتنقلة. حملوا التعب والخيبـة ومـا نسيت أن تقطعـه السكـاكـين من أجسادهم وجاؤوا إلى الدامور. جاؤوا يبحثون للنوم

عن متر مفتوح للريح والأناشيد. ولكن ما نسيت أن تفعله الخناجر البدائية فعلته الطائرات الحديثة التي لا تتوقّف عن قصف هذا البقاء البشري. إلى أين؟ إلى أين؟ من مذبحة إلى مجزرة يُساق شعبي ويتناسل في محطات الانقاض، ويرفع شارة النصر، ويرفع الأعراس.

اللقذيفة أحفاد؟.. نحن

اللشظية أجداد؟.. نحن.

ومنذ عشر سنين أُقيم في بيروت، في مُؤَقتٍ من إسمنت. أحاول أن أفهم بيروت فأزداد جهلاً بنفسي. أهي مدينة أم قناع؟ منفى أم نشيد؟ سرعان ما تنتهي، وسرعان ما تبدأ، والعكسُ أيضاً صحيح.

ففي المدن الأخرى تستند الذاكرة إلى ورقة. تجلس في ساعة انتظار. في فراغ أبيض، فتهبط عليك فكرة زائرة. تصطادها لئلا تهرب منك. وحين تمضي الأيام وتراها تتعرف إلى مصدرها، فتشكر المدينة التي وهبتك تلك الهدية، أما في بيروت فإنك تسيل وتتبعثر. الإناء الوحيد هو الماء. تأخذ الذاكرة شكل فوضى المدينة، وتدخل في كلام يُنسيك الكلام السابق..

ونادراً ما تلاحظ أن بيروت جميلة..

ونادراً ما تحتاج فيها إلى التمييز بين المبنى والمعنى..

ولا تكون جديدة، ولا تكون قديمة.

وحين يسألونك: هل تحبها؟ يفاجئك السؤال فتتساءل: لماذا لم أنتبه؟ أأحبُّها؟ ثم تبحث عن عاطفة محددة لها، فتُصاب بدُوار أو خَدَر. ونادراً ما تحتاج إلى التأكد من أنك في بيروت، لأنك موجود فيها بلا دليل، وهي موجودة فيك بلا برهان، وتذكر أن مثل هذا السؤال في القاهرة ينتهي بالخروج إلى الشرفة للتأكد من وجود النيل. إذا رأيت النيل فهذا يعني أنك في القاهرة. أمّا هنا، فان صوت الرصاص هو الذي يدل على بيروت. صوت الرصاص أو صراخ الشعارات على الجدران.

هل هي مدينـــة، أم مخيّم شوارع عربيـــة وُضعت بلا ترتيب، أم هي شيء آخر: حالة، فكرة، إحالة، زهرة خارجة من نَصّ، فتاة تُربك المخيلة؟

ألهذا السبب لا يستطيع أحدٌ أن يؤلف أغنية بيروت؟

كم تبدو سهلة!

وكم تبـدو مستعصيـة على تجانس المفـردات المتجانسة الإيقاع والقافية بيروت. ياقوت. تابوت.

أم لأنها تقـدم نفسهـا لعـابـر السبيل الذي، وحده، يشعر بأنها بهجته الخـاصـة. ووحـدهـم أصحـابها وأصحاب الأسماء المنسية هم المحرومون من دهش يدهش الآخرين.

أنا لا أعرف بيروت. ولا أعرف إن كنتُ أُحبها أم لا أُحبّها. .

للسيـاسي المهـاجـر كرسيٌّ لا يتغيرٌ ولا يتبدّل. وبتعبير أدق: للكرسيّ سياسي مهاجر لا يُغَيِّره. .

وللتاجر المهاجر فرصةُ التأكُّد من أن ريح الخمسينات التي وعدت فقراء العرب بشيء ما، لن تمرَّ من هنا. .

وللكـاتب الـذي ضاقت به بلاده أو ضاقت به الحـريـةُ في أن يعتقد أنه حر، دون أن يعلم في أية جبهة يحارب. .

وللشـاعـر السـابق إمكـاينـة الحصـول على مُسَـدَّس وحـارس ومال. فيتحول إلى زعيم عصابة يغتال ناقداً ويرشو آخر. .

وللفتاة المحافظة القدرةُ على إخفاء الحجاب في حقيبة يدها على سُلَّم الطائرة، والاختفاء مع عشيقها في فندق. .

وللمهرب أن يهرِّب.

وللفقير أن يزداد فقراً.

ولكـلِّ قادمٍ إلى بيروت بيروتُـه الخـاصة به. ولا نعرف ولا أحد يعرف إلى أي حد يُشَكِّـل مجمـوعُ هذه المـدن مدينـة بيروت التي لا يبكي عليهـا الباكون، ولكنهم على ذكرياتهم أو مصالحهم الخاصة يبكون. .

ربما في هذه الطريقة، الطريقة التي بحث بها العربي عما ينقصه في بلاده، تحوّل لقاء الأضداد إلى هذه التسمية الغامضة، وإلى رئة يتنفس منها نفر من البشر، بينهم القاتل والقتيل، الأمر الذي جعل بيروت غناء الفوارق والفروق، ودون أن يسأل الكثيرون من العُشّاق هل هم في بيروت أم في أحلامهم.

أما بيروت فلا أحد يعرفها. ولا أحد يبحث عنها، ولعلّها، لعلّها ليست هنا أبداً. وفي الحرب فقط عرف الجميع إنهم لا يعرفونها. وعرفت بيروت أنها ليست مدينة واحدة ولا وطناً واحداً وأنها ليست بلاداً مُتجاورة، وأن ما بين هذه النافذة والنافذة المقابلة من التناقض ما يفوق التناقض بين واشنطن وبيننا، وأن التناحر بين هذا الشارع والشارع الموازي يفوق التناحر بين الصهيوني والقومي العربي.

وفي الحرب فقط أدرك المقاتلون أن سلام بيروت مع بيروت مستحيل.

وفي الهدنة فقط أدرك المقاتلون والمراقبون أن هذه الحرب لا نهاية لها وأن النصر فيها ـ خارج توازن الهزيمة ـ مستحيل.

ولعلَّ الجميع أدركوا أن لا بيروت في بيروت. فهذه السيدة الجالسة على حجر صورةً لزهرة عبَّاد الشمس تتبع ما ليس هنا، وتجرُّ عشاقها وأعداءها، على السواء إلى دورة خداع البصر، فتكون لهم أو عليهم ولا تكون لهم أو عليهم.

إنها شكل لشكل لم يتشكَّل، لأن الحرب فيها ـ أعني حولها ـ سجال. ولأن الثابت فيها هو المتغير، ولأن الدائم فيها هو المؤقَّت.

أو: خذ موجة. أجلسها على صخرة الروشة. فكِّك عناصرها، فلن تجد غير يديك غارقتين في لعبة سحر لا تنتهي ولا تبدأ.

سؤال: هل هي مرآة؟

جواب: بقدر ما تصلح الموجةُ لأن تكون حجراً. .

سؤال: هل هي طريق؟

جواب: بقدر ما تكون القصيدةُ شارعاً. .

سؤال: هل تكذب؟

جواب: عندما يُصَدِّقُ المرء ما لا يُصَدَّق. .

وفي الحرب الطويلة كانت واضحة. كان يبدو لي أن هذه الوجوه التي تدخل المرآة سترى ما لم تر خارج الدم والحريق، وتغيّر مصادر انعكاسها. وكان يبدو لي أن بيروت تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو الصحراء. وكان يبدو لي أن القبائل المتحلقة حول رقصة النار ستنتقل من السُلالة إلى الوطن. وأن الوطن سيدخل في الأمة. وأن الأمة ستكتشف بديهة شرط حياتها، كأن تعرف من هو العدو، وأين هو العدو. وكان يبدو لي أن هؤلاء الشهداء، وهذه اللغة الجديدة، وهذا الرماد العظيم سيخلق لنا - على الأقل - علامة. وأن بداية التغيير قد بدأت، وأن الصدفة الاقليمية قد انكسرت وأطلت منها لؤلؤةُ الجوهر.

وكان يبدو لي. .

وكان يبدو لي. .

ولكن العصفور الذي انبثق من دم بيروت ووعودها صار يتساءل: هل أنا في فضاء أم في قفص؟

أمرُّ الآن في بيروت، في ربيع ١٩٨٠، فأرى قفصاً مصنوعاً من ريش جناحيّ. غنائي يثير السخرية. وصرتُ الغريب الوحيد.

- هل أخطأت؟

- كثيراً.

- أخرج من هنا

- هل انتهت الحرب؟

ـ عاد جميع الغزاة، ووُلد الوطن من جديد.

ـ إلى أين أعود؟

ـ إلى بلادك

ـ إلى بلادي؟

ـ في الأمّة . .

ـ وفلسطين؟

ـ ابتعلها السلام

وصرتُ الغريب الوحيد. ماذا أفعل في باريس؟ ماذا تفعل في بيروت. إلى متى أبقى في لندن؟. إلى متى تبقى في بيروت.

قل لي: ماذا جرى لبيروت؟

قال: صارت قوية

قلت: هل انتصرت فيها العروبة أم. . ؟

قال: لا هذه ولا تلك. إنتصرت فيها رياح المنطقة، لأنها لاتستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو واحة في الصحراء. عد من حيث أتيت لأن الشارع يرفضك.

وصرتُ الغريب الوحيد. كم أكتم شكواي: لماذا يكون الوطن اللبناني منافياً لفلسطين؟ لماذا يصير الرغيف المصري منافياً لفلسطين؟ ولماذا يصبح السقف السوري منافياً لفلسطين؟ ولماذا تكون فلسطين منافيةً لفلسطين.

كم أنا غريب هنا، في ربيع ١٩٨٠، الهواء ينذر بشي ما، وطريق المطار ينذر بشيء ما، والبحر ينذر. وصرتُ الغريب الوحيد.

. . وعلى الجدران، تقضم الأعلامُ الرسمية مزيداً من صور الشهداء ومن الكلمات التي كانت تنشىء تماسك الوطن على علامات الطريق الجديدة. بيروت مرّت من هنا. بيروت مرت من هنا. بحثتُ عن طفلة الجنوب التي أكلتْ بطاقة هويتها الرسمية، فوجدتُها تتدرَّب على النشيد الرسمي، وتنتظر المصفحة التي تحمل إليها العيد. .

إنه الوطن . .

بيروت مكللة بأدوات الزينة والخطابة والمراسيم التي تمردت من حقّه أن يُصدَّق ما صدَّق . يقال إن حرب الوعود انتهت ويدأ بناء السلطة . ولم تعد المرآة تعكس إلاَّ ما هو أمامها .

وهذا الفضاء قفص . .

* * *

. . وماذا أيضاً ، عليك أن تكون أبيض ، فهنالك ما هو أغلى من الحرية ، ومن الحياة . .

ما هو؟

البياض

« . . ويقول علماء التاريخ الطبيعي إن السمّور حيوان صغير ذو فراء أبيض ، شديد البياض . وإذا أراد الصيادون صيده يستخدمون هذه الحيلة : يلاحقون المسالك التي يعتاد المرور بها ، ويضعون فيها الطين ثم يأخذون في مطاردته . وحين يصل السمُّور إلى المكان الذي وسَّخه الطين ، يتوقف دفعة واحدة ، ويُفَضِّل أن يُصطاد ويقتل على أن يمرَّ في الطين ويوسِّخ بياض فرائه ، لأنه يُفَضِّل البياض على الحرية وعلى الحياة . . » .

[سرفانتس ـ في حكاية المستطلع الفاسد الرأي]

* * *

أللقذيفة أحفاد؟ . . نحن

أللشظيّة أجداد؟ . . نحن.

وانقلب الصمت، صمتُ المتفـرجـين، إلى ملل . متى ينكسر البطل؟ متى ينكسـر ليكسـر تتابع الخارق إلى مألوف. البطولة أيضاً تدعو إلى الضجر عنـدمـا يطـول المشهـد فتخفّ النشوة. ألم يُدفع موضوعُ هذه البطولة ذاتهُ إلى موقـع الضجـر ليكون هو ذاته مصدراً للضجر في سياق حياة تبحث عن حياتها العـاديـة الخالية من الرسائل والهتاف، ليَشهر الحاكم أمامها أسباب التعاسة: فلسطين المسؤولة عن انقراض القمح في الحقول، وعن ازدهار العمران المُكلَّل بالسجـون، وتحـويـل الـزراعـة إلى صناعة لا تنتج غير بطون الفئة الجديدة، محدثـة النعمـة، المثقلة بهمـوم الاستهـلاك الفـردي الـذي يُثقل الدولة بديون يحتاج المواطن أن يعيش عمره مرتين ليُسدِّدها؟ لقد جَرَّبت مصر هذه الغبطة. وعدها سراب السلام بتحرير الرغيف من ضرائب فلسطين، وبعودة الشهداء إلى أهلهم سالمـين، وبـوجبـة فول أفضـل. فازدهـرت الكـماليات، وامتدت سنـوات الخطـوبـة إلى أجـل غير مُسَمّى ريثما يتم العثور المستحيل على عش زواج، وازداد الجـوعى جوعـاً. ووضـع الســادات كل من تســاءل: أين ثمن السلام؟ في السجن حتى خرج من صُفوف حُرَّاسه فتى يطلق الرصاص على فرعـون، وعلى هذا الســلام، وعلى هذا الســراب. والآخـرون؟ الآخـرون استخلصـــوا العـبرة واستغنـوا عن شبق الســادات أمــام الخطـاب وشيَّـدوا، بمنهجية ومثابـرة، سلام الأمـر الـواقـع المشروط بربط المعدة العربية بشروط الـرضــا الأمـيركي. ووضعوا المعدة العربية رهينة، وشهروا الحرب، بالسلاح وبـــالصحف على موضـوع البطـولـة. وانتظـروا بقليـل من الحـرج أن يحرق

الاسـرائيليـون، نيـابـةً عن الجميع، مسرح هذه البطولة ومنصة هذا الخطاب البـديـل. البطـولة أيضاً تدعو إلى الضجر. كفى . واختلفوا في طريقة تسويق الضجر: بعضهم يدعو إلى انتظار مرحلة تاريخية تنقلب فيها موازين القوى، بعصـا سحـريـة خارجيـة، إلى مصلحتنـا مما يوفر لنا حقّ الكلام في الحرب أو

السلام. وبعضهم يستعجل النهاية وينصحنا بالرحيل على سفن أميركية، بلا شروط وبلا مماطلة. وبعضهم يستعجل النهاية أيضاً بدعوتنا إلى الانتحار الجماعي ليستولي هو على مسرحه وعلى مسرحنا. كفى، إلى متى يصمدون؟ فإمّا أن يموتوا وإمّا أنْ يخرجوا! إلى متى يخدشون أمسيات العرب بجثث تقطع تسلسل المسلسل الأميركي؟ إلى متى يحاربون ونحن في عز الإجازة والمونديال وتربية الضفادع؟ فليفتحوا الطريق أمام شهواتنا وعارنا. لتتوقف هذه الملهاة. أما حكماؤهم، المجللون بلياقة التعاطف، فانهم يقدمون للضجر مظهراً أبهى: آن لهم أن يعرفوا أن لا أمل.. لا أمل يُرتجى من العرب. أُمة لا تستحقُّ الحياة. أُمة على صورة حُكّامها. وهذه معركة يائسة فليدخروا دمهم لتاريخ آخر.

صمت مكلّلٌ بكُلّ ما يفرغ التاريخ من أنخاب، أحصنة تزيينية على حقول ألفت مواسم الغزو. وخطاب واحد يشتهي اغتراب الكلمات عما وراءها. خطاب واحد يُعدِّد الصدأ المتراكم على الكلام منذ استوى الخطيب على عرش المنبر، خطاب واحد يلقيه المنقسمون على أنفسهم المقتتلون على خطاب. أمن حق مدينة، في هذا الحجم، وفي هذه الفوضى، أن تمنح الوقت اسماً مختلفاً؟ أمن حَقِّها أن تخربش فوق اللوحة المكتملة اللون؟ أمن حَقِّها أن تقترب من سياج الصراع المحكم التسييج؟ وتضع قواعد أُخرى لجيران العدو ـ هذه هي أسماؤهم وألقابهم: جيرانُ العدو. إذن «الموت لبيروت» يُعنْون: الموت لهذا الشارع الأخير الخارج عن هندسة الطاعة.

ضجروا، ضجروا. لقد طالت المهلة المحددة لسقوط المعنى الأخير، المتدلّي كالثمرة الناضجة على نخلة العرب اليابسة. المتدلّي لمن يرث ليدفن لا ليعلن جدوى التراكم. متى يوقفون الجنون؟ متى يرحلون؟ ومتى يدخلون في تشابُه الرسل؟ متى يسقطون مثلنا، مع الاحتفاظ بفارق معاق هو: أننا نسقط على عرش، من الهزائم المدوية إلى العرش، وهم يسقطون على نعش، من البطولة إلى النعش..

وفي جعبة الضجر ما يُشبه الحكمة: نحن، نحن الذين نختار زمان المعركة ومكانها ونتائجها. ولن نستخدم هذا السلاح إلاّ وقت الشدة. من يعرف وقت الشدة، ومن أين تأتي الشدة في هذا الرخاء المرفّه؟ هم يعرفون أكثر ممّا نعرف. قد تأتي من حي أوشارع يغضب، ولكن، مَنْ يُغضب هذا الشارع الذي أدمنا هجاء حُرّاسه وتبرئته من غياب الحماسة لنبرىء الأمل من داء عُضال. أما من أحد، في هذه القارة، يقول: لا. أما من أحد؟

ما من أحد..

وزراء الدفاع كانوا يتلهون بفقاعات الشمبانيا، مع القتلة، كُلَّما جاءهم خبر عن تضييق الخناق على تل الزعتر. فبماذا يتلهون الآن، أثناء تضييق الخناق على بيروت؟ لقد رأينا صُورهم على أحواض السباحة. اليس شهر آب حاراً. ورأينا تعب المحاربين المدججين بالبنادق وهم يرفعون ابتسامات أسيادهم السائلة حتى الركبتين في محاولة لإعادتها إلى الأفواه المفتوحة سالمة.. سالمة من عيون المارّة ومن حصار بيروت..

ولكني لا أغضب، كما يغضب غيري، من المظاهرات العربية الصاخبة التي خرجت تحتج على حكم منحاز في مباريات كرة القدم لا لأنّ كرة القدم تلهب الحماسة أكثر من هذا الصمود الطويل في بيروت، بل لأن المكبوت العربي، المتعدِّد المصادر، قد عثر على نقطة الانفجار في المُتاح العربي. ووجد فرصة التعبير الممكن عن غضب مزمن في حرب لا تُهدِّد الوطن مادياً، في حرب معنويات تنتهي إلى هدنة أكيدة بعد خمس وأربعين دقيقة، يعيد خلالها المتحاربون توزيع صفوفهم وتعديل خططهم الهجومية والدفاعية، ويتزودون بما يحتاجون إليه من ذخيرة معنوية ونجدة شعبية، ثم يعودون إلى القتال تحت إشراف قوات دولية لا تسمح باستخدام الأسلحة المحرمة دولياً. وتنتهي الحرب المحدودة، المسيطر عليها، في ساحة المعركة وخارجها ولا تتجاوزها إلى حدود البلدين، باستثناء حالات نادرة كما حدث بين السلفادور وهندوراس. ولكن التوازن الدولي الدقيق، الممثل في مجلس

الأمن تمكن من إصدار قرار قابل للتنفيذ!

ولأني أحب كرة القدم، لم أغضب كما غضب غيري من المفارقة. لا مظاهرة واحدة يثيرها حصار بيروت، بينما تثير كرة القدم هذه المظاهرات أثناء حصار بيروت. لم لا؟ إن كرة القدم هي ساحة التعبير التي يوفرها تواطؤ الحاكم والمحكوم في زنزانة الديموقراطية العربية المهددة بخنق سجنائها وسجّانيها معاً، هي فسحة تنفُس تتيح للوطن المفتّت ان يلتئم حول مُشْترَكٍ، ما، حول إجماع ما، حول شيء ما، تُضبط فيه حدود الأطراف وشروط العلاقة، مهما تسربت منها إيماءات ذكية، ومهما أُسقط فيها المُشاهد على اللعبة ما فيه من المعاني المضغوطة، وطن، أو شكل من تجليات روح الوطن يدافع عن كرامته أو تفوقه أمام الآخر، فلا يخسر توزيع القوى الداخلي شيئاً من تماسكه الظاهري. المتفرجون يستولون على أدوارهم الغائبة في السياسة، يستحضرونها بإحالتها على ذكاء العضلات ومناورات اللاعبين واندفاعهم نحو هدف واحد هو تصويب الهدف. والحاكم الذي عيِّن نفسه مُعبراً عن روح الأمة يُعَبِّر عن نصر هو نتاج سياسته الحكيمة وتنشيط الارادة والطاقات. لعله، وليس اللاعب، هو الأقدر على التأويل لأنه هو صاحب الأمة وراعيها وهو الذي ينفق من ماله الخاص على تشجيع الرياضة. ولكن الأمر ينقلب إلى عكسه حين تختلف النتيجة عن المنشود والمتوقع، حين ينهزم الوطن اللاعب أمام الآخر. عندها يتنصل الحاكم من الهزيمة ويحمّلها للأجهزة، لتاريخ التقاليد مرة، للمدرب مرة ثانية، لانتكاسة اللاعبين - المحاربين مرة ثالثة، ولانحياز عوامل خارجية متمثلة بالحكم مرة رابعة.

لا، ليس للهزيمة أب واحد، وفي السياسة، ليس من التقاليد العربية الحديثة معاقبة القائد على الهزيمة. إنه يدعو الشارع للعطف عليه، ولمواساته الجماعية المعبّر عنها في دعوته إلى البقاء على العرش ليكيد الأعداء. أليس ما يريده الأعداء هو إسقاط الحاكم، ولتخليصنا من هذه النعمة؟ فلننتصر عليهم بالانتصار على أنفسنا وإبقاء الحاكم المهزوم جلّاداً لنا.

ولكن الأمـر يختلف في كرة القـدم: في وسـع الشـارع أن يغضب على اللاعبين وعلى المدرب وعلى الحكم الأجنبي. اللاعبون خانوا روح الأمة والمدرب أساء وضع الخطة. والحكم منحاز. أما الحاكم فهو بريء من الهزيمة، لأنه مشغول بقضايا أكثر جدية. لذلك يرفع الشارع الغاضب صورة الحاكم عالية عالية وينفذ من تحتها إلى حرية التعبير: يشتم الغرب كما يشاء، ويومىء إلى الداخل كما يشاء. هذا ما تبقّى لنا من حرية، فهل نُفَرِّط بها؟ وهذا ما تبقّى لنا من متعة، فلنصفّق لما يشير إلى العافية. الأمة في خير ما دامت قادرة على الحماسة. كرة القدم تقول لنا ذلك، تقول إن العاطفة الجماعية لم تتبلّد. وان في مقدور الشارع أن يتحرك بلعبة لا تثير الضجر. ألم تحتل فلسطين، في ما مضى من حاضرنا، هذه المكانة العاطفية الحماسية. ألم يتحرك كُلُّ شيء باسمها، ولها، ومن أجلها؟

كان ما يصيب فلسطين يصيب الشارع العربي بعدوى الحزن والصخب والغضب. كان الشارع يُسقط الحاكم لأيّ مساس بهذا القلب الجماعي. الآن يتسابق الحُكّام ليرْشُوا الشارع، ليدفعوه إلى التخلي عن هذا الإجماع. السلاح العربي الرسمي يتصدّى، علانية، للخطوة والفكرة الفلسطينيين ويحملها المسؤولية عن بؤس الأمة وعبوديتها. لولا فلسطين، البعيدة المنال، الوهمية، المتخيلة، المبكرة إلى موعدها البعيد، المتقدمة على الوحدة العربية، لولاها لكنا أكثر حرية وأوفر رخاء ورفاهية! هكذا يذيع الخطاب الرسمي شائعات الضجر. ولكن الشارع يعرف كيف يناور ويؤول ويستخدم الكناية، فان السجون ليست شرطاً لتحرير فلسطين.. «ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة» لم يقدم غير معنى واحد: لا فلسطين، ولا معركة، ولا صوت. عاش السوط! لذلك كان سؤال الخبز والحرية يتسلّل إلى سؤال التحرير المعصوم عن العقاب، إلى أن فضح الحاكم اللعبة المؤوّلة فحرم فلسطين وأخرجها من الملعب الوطني ليخرج السؤال الاجتماعي من كلمة سرّ الأمة..

هامش كرة القـدم هو الهامش الفلسطيني السابق. فليغضب الشارع، وليهـرِّب سؤالـه المكبـوت إلى لعبـة لا تثير الضجر، ولا تتيح للحاكم، حتى هذه اللحظة، أن يُغْلِق الملعب.

صمت مُتَـوَّج بأوهـام القـادرين، إلى الآن، على تقسيم الجهات إلى جهتـين، والألـوان إلى لونـين. صمت مُكَلَّلٌ بأوهـام القـادرين على إنتظـار النجدة. صمت مُرَصَّعٌ بذهب الأمل القادم من خارج هذه الساحة. صمت الـذين يقـودون الجملة الثـوريـة إلى خارج مصـادرهـا، بتبعيـة محكمـة ومستحكمـة، استبـدلت الشـارع بالعـاصمـة، ونطقت باسم الشـارع ضد العـاصمـة الأخـرى، لأنهـا استثنت عاصمتهـا، سياج وعيها، من طبيعتها. وعيَّنت للشـر المطلق عاصمـة، وللخـير المطلق عاصمة. واستطاعت، في كل منعطف أن تستبـدل عاصمتهـا بعـاصمـة أخـرى دون أن تتخلَّى عن تدفُّق الجملة الثورية المرادفة للعاصمة. لابد من عاصمة. لا بُدَّ من عاصمة!..

* * *

.. لماذا يرتجف الصَنَمُ إلى هذا الحد، لماذا يرتجف الصنم؟

سيقول عكس ما هو. سيقول عكس هذا الصمت الذي يُطبق عليه..

سيواصل تلاوة درس البداية،

سيمجِّد امتثال التاريخ والمذابح والعذاب إلى برهانه:

ألم أقل لكم؟

ولكنك لا تقول شيئاً يا سيِّدي الصنم..

ينـدس في السلطـة ليكـون معـارضـاً. ويندس في المعارضة ليكون هو السلطة. ويحارب السلطة بسلطة أُخرى. ولا يتبعه أحد من فرط ما هو تابع.

هذه هي لحظتك، يا سيدي الصنم، قل شيئاً لتبقى صنماً من صنم.

سيقول كلاماً آخر بعد أيّ شيء آخر
سيقول إنه لم يوافق على الخروج
سيقول إنه قال لنا
ولكنه لم يقل لنا شيئاً.
لماذا أرى الصنم، للمرة العاشرة، لماذا أرى الصنم؟
صمت من ذهب. صمت من شماتة. لذلك أعجبتني غضبةُ الأُمة على التآمر الغربي العنصري على المشاركة العربية الصاعدة في «الموندياك». كانت العلامة الوحيدة على وجود شيء يتحرك خارج أسوارنا الصاروخية، كانت الدليل على أن الأمة لا تسمح للأجنبي بأن يخدش روحها. وكانت تحمل رداً ساخراً على وزراء الخارجية العرب الذين تنادوا للاجتماع في تونس لبحث «امكانية» عقد مؤتمر قمة عربي لبحث الاجتياح الاسرائيلي، ورداً ساخراً على عدم احتجاج الدولة اللبنانية على هذا الاجتياح واكتفائها بدور الوسيط بين المبعوث الأميركي وقيادة المقاومة. فتساءلنا: لماذا يحرق أصحابُ «قمة الحضيض» العربي ثومهم وبصلهم وأصابعهم. أليس في الوقت متسع للمزيد من الاجتياح وابتلاع الأرض والناس، إذ لم يمض على الغزو غير شهر واحد فقط. . شهر واحد لا يزيد عن لحظة عابرة في تاريخ الحكم العربي الخالد. ولا تكفي لصياغة ردّ الدول العربية على افتراءات المبعوث الأميركي عليها. لقد قال: إن هناك قراراً عربياً ودولياً بتصفية المقاومة! خسىء! فلماذا تكون الدول العربية على عجلة من أمرها، والعجلة من الشيطان الرجيم، ليقضي وزراء خارجيتها ساعات صعبة في تونس، يختلفون فيها على تحليل أهداف الاجتياح ومداه: هل هو ضد الفلسطينيين واللبنانيين أم ضد سائر العرب؟ هل سيتجاوز الإعلان الإسرائيلي مداه. . وسيختلفون على تعريف مادة البترول: هل هو سلعة تجارية، أم سلاح سياسي؟ لقد شعروا، ثانية، بالضجر. فإن الخبر المشتهى لم يُعْلَن بعد، المقاومة لم تمت. وما زال في خزانات الطائرات الإسرائيلية من البنزين والقذائف ما يكفي لإحراق خمسين ألف

طفل لبناني وفلسطيني. وما زال في مستودعات الأسلحة الأميركية التقليدية ما يكفي لتدمير كل المدن. وما زال في بيروت بعض الماء والمعلبات والأوكسجين الكافية لمواصلة المقاومة. وما زال في سماء العرب المفتوحة ممرات كثيرة للمزيد من قاذفات القنابل. وما زال في البحر الأبيض المتوسط مكان للمزيد من الغواصات وحاملات الطائرات والمعاهدات الدولية. وما زال في بيروت أهداف مدنية كثيرة لم تقصف. فلماذا العجلة لماذا العجلة؟

ونحن أيضاً نحبُّ كرة القدم. ونحن أيضاً يحق لنا أن نحب كرة القدم، ويحق لنا أن ندخل المباراة. لم لا؟ لم لا نخرج قليلاً من روتين الموت. في أحد الملاجىء استطعنا استيراد الطاقة الكهربائية من بطارية سيارة. وسرعان ما نَقَلَنا «باولو روسيّ» إلى ما ليس فينا من فرح. رَجُلٌ لا يَرى في الملعب إلا حيث ينبغي أن يُرى. شيطان نحيل لا تراه إلا بعد تسجيل الهدف، تماماً كالطائرة القاذفة لا تُرى إلا بعد انفجار أهدافها. وحيث يكون باولو وُرسّي يكون الجوول، يكون الهتاف، ثم يختفي أويتلاشى ليفتح مسارب الهواء من أجل قدميه المشغولتين بطهو الفُرص وإنضاجها وإيصالها إلى أوج الرغبة المُحَقَّقة. لا تعرف إن كان يلعب الكرة أم يلعب الحب مع الشبكة. الشبكة تتمنّع، فيغويها ويغاويها بفروسية إيطالية أنيقة على ملعب إسباني حار. ويُغريها بانزلاق القطط الهائجة المائجة على صراخ الشهوة. وعلى مرأى من حُرّاس العِرْض المصون الذين يعيدون إغلاق بكارة الشبكة بغشاء من عشرة رجال، يتقدم باولوروسي بكامل الشبق، يتقدم لاختراق شبكة قابلةً للنَّيْل من عضلة هواء مرتخية عجزت عن المقاومة، فاستسلمت لاغتصاب جميل. .

كرة القدم،

ما هذا الجنون الساحر، القادر على إعلان هدنة من أجل المتعة البريئة؟ ما هذا الجنون القادر على تخفيف بطش الحرب وتحويل الصواريخ إلى ذباب مزعج وما هذا الجنون الذي يعطل الخوف ساعة ونصف الساعة،

ويسري في الجسد والنفس كما لا تسري حماسة الشعر والنبيذ واللقاء الأول مع امرأة مجهولة . .

وكرة القدم هي التي حققت المعجزة، خلف الحصار، حين حركت الحركة في شارع حسبناهُ مات من الخوف، ومن الضجر.

ولم أفرح بتظاهرات تل أبيب التي تسرق منا كل الأدوار. فمنهم القاتل ومنهم الضحية. منهم الوجع ومنهم الصرخة. منهم السيف ومنهم الوردة. منهم النصر ومنهم الهزيمة، لأنها تشي بتغييب أبطال المسرح. لقد اعتادوا الحروب السهلة، وتعودوا على الانتصارات السهلة، وقد سهّل التنافس الانتخابي بين الحزبين الكبيرين عملية انفتاح شوارع تل أبيب على عشرات الآلاف من المتظاهرين. واستنهضتهم ضحاياهم إلى درجة دفعت ضابطاً كبيراً إلى الاستقالة. كنت أستمع إلى إذاعتهم ولا أفهم سرّ البكاء. المنتصر مهزوم من الداخل. المنتصر يخشى على فقدان هويته: الضحية. لا حقّ لأحد في أن يحرز هذا الإنجاز: أن يكون الضحية، لأن انقلاب هذا الدور على أصحابه يقلب ميزان العدل الرملي. وبالنيابة عنّا كانوا يصرخون، وبالنيابة عنا كانوا يبكون، وبالنيابة عن جدارتهم كانوا ينتصرون. أهنالك ما هو أقسى من هذا الغياب: ألّا تكون معبّراً عن النصر، وألّا تكون معبّراً عن الهزيمة. أن تكون خارج المسرح، ولا تحضر عليه إلّا بوصفك موضوعاً يقوم الآخرون بالتعبير عنه كما يريدون. «إن أردتم فليست تلك بخرافة»، هكذا أطلق تيودور هرتسل شعار الصهيونية الداعي إلى تأسيس دولة لشعب لا أرض له على أرض لا شعب لها! وفي حصار بيروت الذي يشهد على وجود شعب له أرض محتلة مع غزاة سرقوا تلك الأرض، قام ناتان زاخ، أحد شعراء الحداثة العبرية، بتعديل شعار هرتسل بسخرية لامعة: «إن أردتم فليست تلك بخرافة: نصر إسرائيل لن يخيّب، ولكن لن يدوم لكي يخيّب. .» عشرات القصائد العبرية تحاول التعبير، بدلاً من القصائد العربية، عن حصار بيروت، والاحتجاج على المذبحة. منهم الخطيئة ومنهم الغفران.

منهم القتل ومنهم الدموع. منهم المجازر ومنهم عدالة القضاء..

* * *

«ثم دخلت سنة..

■ وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس، وقتلوا أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبرّوا ما علوا تتبيراً. وأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستمائة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب. وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق، مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة والسلطان، فلما سمع الناس هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا. وندب الخليفة الفقهاء للخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس فلم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فقال في ذلك أبو المظفر الأبيوردي:

وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يريقه

إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

■ وفيها سار السلطان محمد بن ملكشاه إلى الريّ فوجد زبيدة خاتون أُم أخيه بركيارق فأمر بخنقها، وكان عمرها إذ ذاك اثنتين وأربعين سنة..

■ وفيها بعث السلطان ملكشاه كتاباً إلى الحسن بن صباح أحد دعاة الباطنية يتهدده وينهاه ويبعث إليه بفتاوى العلماء، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: إني أُريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرأبت وجوه الحاضرين، ثم قال لشاب منهم: أُقتل نفسك! فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً. وقال لآخر منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطع. ثم قال لرسول السلطان: هذا الجواب.

■ وفيهـا ملكت الفـرنج قلاعاً كثيرة منها قيسارية وسروج، وسار ملك الفرنج كندر ـ وهو الذي أخذ بيت المقدس ـ إلى عكا فحاصرها . .

■ وفيهـا ادعى رَجُـلٌ النبوة بنواحي نهاوند، وسمَّى أربعة من أصحابه بأسماء الخلفاء الأربعة .

■ وفيها ظهرت صبيَّةٌ عمْياء تتكلم على أسرار الناس، وما في نفوسهم من الضمائر والنيّات . وبـالغ الناس في أنواع الحيل عليها ليعلموا حالها فلم يعلمـوا . وسألـوهـا عن نقـوش الخواتم المقلوبة الصعبة وعن أنواع الفصوص وصفـات الأشخـاص ومـا في داخـل البنـادق من المشمـع والطـين المختلف، والخرق وغير ذلك فتخبر به سواء بسواء، حتى بالغ أحدهم ووضع يده على ذكره وسألها عن ذلك فقالت : يحمله إلى أهله وعياله . .

■ وفيها قدمت خاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة إلى بغداد فنزلت في دار أخيهـا السلطـان محمـد، ثم حمل جهـازهـا على مئة واثنتين وستين جملاً، وسبعة وعشرين بغلاً . وفتح الفرنج مدائن عديدة منها مدينة صيدا وغيرها . .

■ وفيهـا قاتلوا الفـرنـج بالشام وانتزعوا منهم حصوناً كثيرة، ولما دخلوا دمشق دخل الأمير مودود صاحب الموصل إلى جامعها ليصلّي فيه فجاءه باطني في زي سائل فطلب منه شيئاً فأعطاه، فلما اقترب منه ضربه في فؤاده فمات من ساعته .

■ وفيهـا جاء كتـاب من الفـرنـج إلى المسلمـين وفيـه : «إن أُمَّةً قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيقٌ على الله أن يبيدها» .

■ وفيهـا عزم الخليفـة على طهـوزر أولاد أخيه، وكانوا اثني عشر ذكراً، فزيّنت بغداد سبعة أيام بزينة لم يُرَ مثلها .

■ وفيهـا وقـع بأرض المـوصـل مطـر عظيم فسقـط بعضــه ناراً تأجَّـج فأحـرقت دوراً كثـيرة . وظهـرت في بغـداد عقـارب طيّـارة لها شوكتان فخاف الناس منها خوفاً شديداً . .

■ وفيهـا وجـد رجل يفسق بصبي فألقي من رأس منارة. وفيها ملكت الفرنـج عدة حصـون من جزيـرة الأنـدلس. وفيها مَلَكَ نور الدين بن محمود زنكي عدة حصـون من الفـرنـج بالسـواحل. وفيها تزوَّج سيف الدين غازي بنت صاحب ماردين حسـام الـدين تمرتاش بن أرتق، بعد أن حاصره فصالحه على ذلك، فحُملت إليه إلى الموصل بعد سنتين، وهو مريض قد أشرف على الموت، فلم يدخل بها حتى مات، فتولى بعده أخوه قطب بن مودود فتزوَّجها..

■ وفيها وقع مطر في اليمن كُلُّه دم، حتى صبغ ثياب الناس.

■ وفيهـا باض ديـك بيضـة واحـدة، ثم باض باز بيضتـين، وباضت نعـامـةٌ من غير ذكـر. وكـانت وقعة عظيمة بين نور الدين الشهيد وبين الفرنج فكسرهم وقتل منهم خلقاً..

■ وفيهـا هاجت ريـح شديـدة بعـد العشاء فيها نار، فخاف الناس أن تكـون السـاعـة، وزلزلت الأرض وتغير ماء دجلة إلى الحمرة، وظهر في أرض واسط دمٌ لا يعرف ما سببه. وأخذ الفرنج عسقلان.

■ وفيها كان غلاء شديد بخراسان حتى أكلوا الحشرات، وذبح إنسان منهم رجلًا علوياً فطبخه وباعه في السوق، فحين ظهر علية قُتل.

■ وفيهـا سَقَـط بَرَدٌ بالعـراق كبـار، زِنَةُ البردة قريب من خمسة أرطال، ومنها ما هو تسعة أرطال بالبغدادي. وخُسِفت هناك القبور وطفت الموتى على وجه الماء. وفيها أقبل ملك الروم في جحافل كثيرة قاصداً بلاد الشام فرده الله خائبـاً خاسئـاً. وفيهـا قال عفيف النـاسـخ: رأيت في المنـام قائـلًا يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاآت مات الخليفة المقتفي - يعني خمساً وخمسين وخمسمائة.

■ وفيهـــا كتب صلاح الـدين إلى الأمـراء يلومهم على ما صنعـوا من المهـادنـة ودفـع الأمـوال إلى الفرنج، وهـم أقلُّ وأذلّ، وأخبرهـم أنه على عزم قصـد البـلاد الشـامية ليحفظها من الفرنج، فردوا إليه كتاباً فيه غلظة، وكلام فيه بشاعة، فلم يلتفت إليهم..

■ وفيها كتب إليهم [الأمراء] القاضي الفاضل على لسان السلطان كتاباً بليغاً فصيحاً فائقاً رائقاً، على يدي الخطيب شمس الدين، يقول فيه: «فإنّا كنا نقتبس النار بأكفّنا، وغيرُنا يستنير. ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونلتقي السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير». فلما وصلهم الكتاب أساؤوا الجواب.

■ وفيها بعث ملك الانكليز إلى السلطان صلاح الدين يذكر له أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نيّة إرسالها إليه، ولكنها قد ضعفت وهو يطلب دجاجاً وطيراً لتقوى به، فعرف أنه إنما يطلب ذلك لنفسه يلطفها به، فأرسل إليه شيئاً كثيراً من ذلك كرماً. ثم أرسل يطلب منه فاكهة وثلجاً فأرسل إليه أيضاً، فلم يفد معه الإحسان، بل لمّا عوفي عاد إلى شر مما كان. واشتد الحصارُ على عكا ليلاً ونهاراً، فأرسل أهل البلد يقولون للسلطان إمّا أن تعملوا معنا شيئاً غداً، وإلا طلبنا من الفرنج الصلح والأمان، فشقّ ذلك على السلطان..

■ وفيها وقعت الهدنة على وضع الحرب ثلاثين سنة وستة أشهر، للفرنج ما بأيديهم من البلاد الساحلية، وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية، وما بينهما من المعاملات تقسم على المناصفة..».

ابن كثير [البداية والنهاية]

.. «وليس عند الإفرنج شيء من الغيرة والنخوة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوّلت عليه خلّاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئتُ إلى نابلس أنزل في دار رجل يُقال له معزّ، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق. ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجّار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول «فلان التاجر قد فتح بيته من هذا الخمر.

من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا. . فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له «أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟» قال: «كنت تعبان دخلت أستريح». قال: «كيف دخلت إلى فراشي؟». قال: «وجدتُ فراشاً مفروشاً نمت فيه». قال: «والمرأة نائمة معك؟». قال: «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟» قال: «وحق ديني إن عدتَ فعلت كذا تخاصمتُ أنا وأنت». فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حماميّ يقال له سالم مَن أهل المعرة في حمّام لوالدي رحمه الله. قال: «فتحت حماماً في المعرة أتعيَّش فيها. فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشدّ في وسطه المئزر في الحمّام، فمدَّ يده فجذب مئزري من وسطي ورماه. فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال: سالم. فتقربت منه. فمدَّ يده على عانتي وقال: سالم، جيِّد! وحق ديني إعمل لي كذا. واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع. فحلقته فمرَّيده عليه فاستوطأه فقال: سالم، بحق دينك إعمل للداما. (والداما بلسانهم الستّ) يعني امرأته. وقال للغلام له: قل للداما تجيء. فمضى الغلام أحضرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها وقال: إعمل كما عملت لي. فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينتظرني. فشكرني ووهبني حقَّ خدمتي.

«فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة. وما تكون الشجاعة إلاّ من النخوة والأنفة».

[أسامة بن منقذ ـ كتاب الاعتبار]

* * *

. . . ساعات ما بعد الظهر. رماد من بخار، وبخار من رماد. المعدن سيِّدُ الوقت. لا يفلُّ المعدن غير معدن آخر يصنع تاريخاً آخر. القصف يطال كُلَّ شيء. ولا يبدو أن لهذا اليوم نهاية. آب أقسى الشهور. آب أطول الشهور. وهذا اليوم أقسى أيام آب وأطولها. أما لهذا اليوم نهاية؟ لا أعرف ماذا يحدث في ضواحي المدينة، لأن مدير المعدن حجب عنّا صمت الأشقّاء المُدَوِّي، حجب عنا صمت الملوك والرؤساء ووزراء الدفاع المشغولين بقراءة ما لا يقرأون. ولم يبق أمامنا سوى سلاح الجنون. نكون أو لا نكون. نكون أو نكون. لا نكون أو لا نكون. ليس لنا غير الجنون. «حاصر حصارك بالجنون وبالجنون وبالجنون. ذهب الذين تحبهم ذهبوا، فإمّا أن تكون أو لا تكون». تاريخ يتغيرٌ شكله ومؤرخوه. تاريخ يكتب صورة النهر، فمن يؤرخ القاع، من يؤرخ الطحلب، من يؤرخ خروج العدو من الأخ، ودخول الأخ في العدو؟ ومَنْ أطلع في وجهي، ثانيةً، هذا الحلزون؟ حلزون يحمل عبء لعابه الأخضر. حلزون يسودُ حائطاً ويمنعنا من الاقتراب من حائط نسقيه بالدم من أجل أن يستولي هو، الحلزون، على العرش. نحن المتخمين موتاً بما ليس لنا ندافع عمّا ليس لنا. وليس لنا هذا الطريق المؤدّي إلى الجبل. وليس لنا خطابُ المنصة التي سيعتليها الحلزون، ويفاخر الأمم بتاريخ ليس له، بتاريخ مسروق من حاجة البطل إلى موطىء للكعب. لماذا يطلع الحلزون في وجهي مرة أخرى، في نهار واحد؟ تباً لهذا النهار تباً لهذا النهار. . تبّاً!

* * *

. . جالساً في ركن قصيّ، قصيّ عن الآخرين وعن نفسي، أُفكّر في ما يرد عليّ من منام يخرج من منام: هل أنت حيّ؟ متى حدث ذلك؟ هل تحميني الذاكرة من هذا التهديد؟ هل تستطيع سوسنةُ الماضي أن تكسر هذا السيف المرصّع بالقذائف؟ ولماذا هي. . لماذا هي؟ لماذا تطلع السوسنة من نشيد الأناشيد وقد أُوقفَتِ الشمسُ والقمر على أسوار أريحا ليمتد زمن القتل؟

. . حصَّـةٌ للطفولة وحصة للشبق. جَسَدٌ للمغفرة، جَسَدٌ للشهوات.

يذوب رخـام الكـلام ليصقـل مدائـح السـاق التي تشقُّ المقبرة إلى حديقتين: حديقة للماضي، وحديقة للحلم. ويلمع البرق الأول في العظام اليافعة. كم امرأة أنت يا عنقود السماء الحافي! كم امرأة فيك لأسقط في زحام روحي وأنجو على توالُـد لحظـة. كم امـرأة أنت ليـدخـل الوقت في الوقت ويخرج خيطاً من حريـر يصطفيني لاختيـار مشـانق الدم. كم امرأة فيك لتتقمَّص البرهةُ تاريخ الصـلاة والمجـون على قدمـين هما ختم جهنم والجنـة! كم امـرأة أنت لتكون سيرة هذا السطن المعجون من رائحة الفل ومن لونه التائه بين الضوء والحليب سيرةً لحروب الـدفـاع عن الصبـا والأربعـين. كم امـرأة أنت لأسـتردَّ الشتاء السـابق من كل ما يأتي من مطرٍ أختـارُ من قطـراتـه شبهاً لما عرفت؟ ولأقارن اللذة باللذة، هل كنا معاً حقّاً على صوف تلك الأرض؟ أُقلِّد ما لا يتبدَّد من رعشة تهزُّ الغرف حين يوحِّدُ ما يتجدَّدُ فينا ظنّي بأني معك. ولم أقل إني أُحبك، لأني لا أعرف إن كنتُ أحبك ما دُمتُ أُخبىء دمي تحت جلدك وفي شعيرات السرّ المقـدس أذرفُ عسل النحل الأحمق، السرّ الذي امتصني لأجد جسدي يتـوالـد بلا انقطـاع. ولم تقـولي أُحبُّكَ لأني لن أُصدِّق أن جميع النساء اللائي وُلـدن على جبـل جلعـاد وفي سومـر وفي وادي الملوك يجتمعن عليَّ الليلة. كم امرأة فيك لتنوح أحلامي على ما تفقد الأمم من شتاء يستحقُّ أن تكوني أمَّه وسيـدتـه. في كل امرأة جميلة هِبَةٌ من وصايا قدميك للأرض، وإرث لا ينقطع عن تزويـد الغـابـات بهستيريا العشب. ليت واحداً منا يمقتُ الآخر ليصاب الحبُّ بالحب. وليت واحداً منا ينسى الآخر ليصاب النسيان بالذكرى. وليت واحداً منا يموت قبل الآخر ليُصاب الجنون بالجنون.

خذني إلى اسـتراليـا ـ قالت لأُدرك أنـه آن لنـا أن نبتعـد عن الفـارق والحـرب. خذني إلى اسـتراليا، لأنني كنت عاجزاً عن الوصول إلى القدس. كنتُ خارجاً من حزيران بعناد لم يرحمني: للجيوش أن تُهزم، وللنحلة في قلبي أن تصمـد، وللروح أن تنتصـر عليَّ وعلى أعـدائي. كانت الفتـوة والغنـائيـة

تحفـران لي مسـاراً آخـر على جبل يطل على ساحات تاريخ: عظام أحصنة، ودروع مثقوبة، وأعشاب، من تلك الإطلالة يتضاءل الراهن ولا تعود الموجةُ عنواناً للبحر، فأحمي نفسي وربما غيري من هيجان اللحظة بانتقالي من شهيد إلى شاهد.

ولكن، لماذا أتذكرها في هذا الجحيم، في هذه الساعة من ساعات بعد الظهر، في هذا البـار ـ الملجأ؟ الأنَّ امرأة أُخـرى جالسـة قبـالتي تعيد مشهد الصـرخـة، أم لأنَّ منـامـاً أخرجها من منام هذا الفجر؟ لا أعرف كما لا أعرف تمامـاً لماذا أتـذكَّـر أُمّي، ودرس القـراءة الأول، وفتـاتي الأولى تحت شجـرة الصنـوبـر، وعقـدة الناي التي لاحقتني خمسة وعشرين عاماً؟ تعود الدائرة إلى نقطتها الأُولى..

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة..

لا تقضـمني كتفاحة، فلّنا هذا الليل كُلُّه. خذني إلى أستراليا حيثُ لا أحد منّا هناك، لا أنت ولا أنا..

كانت تضـع الحطب في المـوقـد. وكـانت الأُغنيـة تُعيـد الأُغنية ذاتها: سوزان تأخذك إلى النهر. الكلمات جميلة، والصوت لا يغني بقدر ما يقرأ شعراً لا يصـل إلى أي مكـان. إنسـان وحيـد في الـبراري. إنسـان يقولُ تماسك، ليحمي نفسه من العزلة، ليدل نفسه على نفسه.

متى تقبلني..

عندما أُصدق أن في وسعي أن أُصدِّق أنَّ هاتين الشفتين مفتوحتان لأجلي..

إذن لمن؟

لصـوت قادم من كوكب بعيـد. أتعرفين أنَّ في وسع عينيك أن تُلوِّنا أي ليل بأي لون تريدين؟

قبّلني!

مطر خلف الزجاج. وجمر داخل الزجاج. لماذا تمطر إلى هذا الحد؟
لكي تبقى فيّ..

تتوالد الشهوة من الشهوة. مطر لا يتوقف. نار لا تنطفىء. جسد لا ينتهي، ورغبة تضيء الظلام والعظام. ولا ننام إلاّ ليوقظنا عطشُ الملح إلى العسل، ورائحة البُنّ المحروق ليلاً على اشتعال الرخام. بارد وساخن هذا الليل. ساخنَ وبارد هذا الأنين. ويكويني حرير لا يتجعد بل يشتدُّ كلما احتك بمسامٌ جلدي وصاح: الهواء إبر من لعاب دافىء بين أصابع قدميّ، وعلى كتفي أفعى من الكهرباء تزحف وتشرئبُّ على الجمر. وفم يلتهم هبات الجسد، ولا يُبقي من اللغة غير صراخ الغُرف الموصدة على حرب الحيوانات الأليفة. وعَرَقٌ يُبَرِّد الهواء ويجفل..

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة.

* * *

الساعة الخامسة بعد الظهر هنا. ناديت النادل: أعطني مزيداً من البيرة. هل مر «س»؟ لم أره من يومين. والسحلية؟ سألت عنه وذهبت. وأستاذ اللغات السامية القديمة؟ لم يأت بعد والشاعر الممتلىء بفراغ فصيح؟ ذهب منذ قليل. وأستاذ الأدب الانجليزي في الجامعة الأميركية؟ مرَّ في الصباح. والقائد المتقاعد؟ لم يأت. ووفد الهلال الأحمر الدولي؟ يأتي ويذهب. أعطني مزيداً من البيرة. أين النادل الباكستاني؟ يأتي في الليل.

لعلَّ المرأة الجالسة، قبالتي، لاحظتْ ما أسرق من ساقيها، فمدَّدتها، سَلَّطتها على عطش رغبتي. وطلبت مزيداً من البيرة.

* * *

الساعة الخامسة صباحاً يا عزيزتي

قلت بدعابة: وهل ينعس العربي؟ أما أنا فلا أُريد أن أنام.

قلت: نعم، ينعس العربي ويحاول أن ينام.

قالت: نم. وسأحرس نومك.

قلت: سيوقظني لَيْلَكُ نظرتك الصافية. هل تعرفين أن عينيك تدفعان أي ولد شقيّ إلى عبادة الهدوء؟

قالت: وماذا تفعلان بالرجل؟

قلت: تدفعانه إلى الفروسية.

قالت: نَمْ

قلت: هل تعرف الشرطة عنوان هذا البيت.

قالت: لا أظنُ ذلك، لكن الأمن العسكري يعرفه. هل تكرهُ اليهود؟

قلت: أُحبُّك الآن..

قالت: ليس هذا جواباً واضحاً.

قلت: وليس السؤال واضحاً، كأن أسألك: هل تحبين العرب؟

قالت: ليس هذا سؤالاً.

قلت: ولماذا كان سؤالك سؤالاً؟

قالت: لأن فينا عقدة، ونحتاج إلى إجابة أكثر من حاجتكم إليها.

قلت: هل أنت حمقاء؟

قالت: قليلاً، ولكن لم تقل لي إن كنت تحب اليهود أم تكرههم!

قلت: لا أعرف، ولا أريد أن أعرف. ولكنني أعرف أنني أُحِب مسرحيات يوربيدوس وشكسبير، وأُحب السمك المقليّ، والبطاطا المسلوقة، وموسيقى موزارت، ومدينة حيفا، وأُحبُّ العنب، والمحاورات الذكية، وفصل الخريف، ومرحلة بيكاسو الزرقاء، وأحب النبيذ، وغموض الشعر الناضج. أمّا اليهود فليسوا سؤالاً للحب أو المقت.

قالت: هل أنت أحمق؟

قلت: قليلاً.

قالت: هل تحبُّ القهوة؟

قلت: أُحب القهوة، وأحب رائحة القهوة..

نهضتْ عاريـةً حتى منّي، فأحسستُ بوجـع مَنْ خلعـوا عضـواً من أعضـائـه. صحت: تعـالي فوراً، عودي من رائحـة القهوة، فأنا ناقص، ولا أستطيع لا أستطيع.

- ماذا دهاك؟

هل انتهى كُلُّ شيء.

- ماذا دهاك؟

- لا أستطيع العودة إلى نفسي...

[وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة].

- خذني إلى استراليا.

- خذيني إلى القدس.

- لا أستطيع.

- ولا أستطيع الرجوع إلى حيفا.

- بماذا تحلمين عادة؟

- عادة لا أحلم. وأنت بماذا تحلم؟

- بأن أتوقف عن حبك..

- هل تحبني؟

- لا. لا أُحبك.. هل تعلمين أن أُمك سارة قد شرّدت أُمي هاجر في الصحراء؟

- وما ذنبي أنا. ألهذا لا تحبني؟

- لا ذنب لك، ولهذا لا أُحبك.. أو أُحبك

عزيـزتي، جميلتي، ملكتي، السـاعـة الآن الخامسة والنصف صباحاً،

وعلي أن أعود إليهم:

ـ لمن؟

ـ إلى شرطة حيفا لأثبت وجودي في الثامنة صباحاً.

ـ تثبت وجودك؟

ـ وفي الرابعة بعد الظهر

ـ وفي الليل؟

ـ يأتون، في أي وقت بلا موعد، ليتأكدوا من وجودي..

ـ وإذا لم يجدوك في البيت؟

ـ سأكون مسؤولاً عن أية حادثة تقع في هذه البلاد، من مرتفعات الجولان حتى قناة السويس.

ـ وما هي العقوبة؟

ـ مجرد غيابي عن البيت ليلاً يساوي اعتقالاً لمدة خمس سنين على الأقل. أما إذا وقع حادث أكبر، فإن العقوبة هي السجن المؤبد على الأقل.

ـ وماذا ستقول في المحكمة؟

ـ سأقول: كنت هنا. أحيا نشيد الأناشيد.

ـ مجنون؟

ـ مجنون..

ـ ولا تحبني؟

ـ لا أعرف.

[وكلانا يقتل الآخر تحت النافذة..].

* * *

.. وهنـاك، في الـركن القصيّ، أرى الفـرس الطـالعـة من مذائـح العرب. فرس تشاكس المجهول. فرس تشاكس اللغة. ففرس تنبثق من قطرة الضـوء المتلألئة على حقـلٍ تفتحه ذبذبةُ وَتَرِيْ جيتاريُنادي أعراس الفرسان القتلى. القبـاب والمـآذن والأبـراج والمـدي تتبـع ظلَّ العاشقة الذي يتبع جهة الرمح المتوتّر. سأدير ظهري للخناجركي الأمس طحلب المايخا وأسقط في عُلُوّ المنوت الشـاهق محروسـاً بالنعنـاع والشظايا التي لا تسمح لأحدٍ بالإقتراب من الفضـاء المفتـوح لخطـوتـين ـ الحبُّ أن تترددي. والحبُّ أن أسخى بمزيد من حيوانات الروح. والحب أن لا أسمع منك غير الأنين. للهواء أن يتحوَّل إلى مادة صلبة. وللبحر أن يُهَدِّد. ولكِ أن تلقي بعتاد الجسد الخائف إلى أقصى الخوف لِنأمن هذا الباب الخشبيُّ المش. إصعدي مائة واثنتي عشرة درجة كي يتصبَّب لهاثك صهيلاً يتعب وكي أمسح العرق بجلدي المنذور لهذا الواجب. سأدعوك «ج» لأنك مطلع الجنون، ومطلع جهنم، ومطلع الجنة، ومطلع جميع الشهوات المنتصرة على حرب بجماع لا يتحقَّق إلاّ في الخوف من الموت. دعي ابنتـك تلعب مع أستـاذ الكيميـاء، وتعالي إلى مرصد الصواريخ لنرصد ما في الجسدين من قطـط. قدمُك مصقولة كحجر في شتاء الجبال، حجريندس في خاصـرتي لأصـرخ نبيـذاً من خوابي الأديرة. ولا أصرخ كي لا تظنّي أن شيئاً غير الحصار يوجع. ولا أردُّ التحية لأني تواطأتُ مع قصتي على رغبتي من أول خصلة شعـر كسـرتني. فللشهـوة أيضـاً قناع، لِتطـول اللعبـة عاماً آخـر. تعبتُ من قنـاعي، ومن لعبتي، ومن تعبــك. فلا تدقي بلاط الشـارع أكثـر بصهيـل يحفرني. تعبتُ من حوادث سير لا تليق بهذه الحرب كأن ترتطم كتفي اليُسرى بكتفـك اليسـرى في تقـاطعٍ صبيانيّ المشهد. ومن العار أن نموت حُبّاً في زمن الحـرب. هل أُحبـك؟ لا أحبك إذا كان الحب يستغرق وقتاً أطول من إطلاق رصـاصـة على نخـاع شوكي. وأُحبـك، إذا كان الحب امتثـالاً لصاعقة برق تضـربني السـاعـة. تعـالي لنعـرف الجـواب. تعالي لنسأل السؤال. فما على المحاصرين في هذا الركن الأخير من العالم غير أن يَعْتِقا جنَّ الشبق من سجن

الكـلام والـذهب. ومن الظلم أن نهاجـر بلا التصـاق. من الظلم أن نُرْجـع النظـرة من منتصف الطـريق إلى عيـون تصُبُّ العسـل على النـار. عيناك تجرحـان الحجـر وتذيعان في دمي دبيب النمل، فمتى أجمع هذا النمل وأعيده اليك، إلى بيت النمل، لأتوقَّف عن حَكِّ دمي بنظرات الساق على الساق. اخرجي من هذا الباب إلى اليسار، ثم انعطفي يميناً. . وامشي عشرين متراً ثم انعطفي إلى اليسـار ومنـه إلى اليمين ثلاثـين متراً، بعـدهـا انعطفي إلى يمـين آخـر. هنـاك شجـرة زنـزلخت كبـيرة، شجـرة وحيـدة ستـدلُّـكِ على سـاحـة صغيرة. . اقطعيها واتبعي رائحة الهال إلى مدخل البناية كما يتبع كلب البحر رائحــة الـدم. اتبعي صوت دمي، واصعــدي مائـة واثنتي عشـرة درجـة. ستجدين الباب مفتوحاً، وستجدينني خلف الباب مشوياً من الانتظار، جاهزاً للمـوت واقفـاً معـك واقفـاً فيـك حتى يفصلنـا صاروخ لنجلس. دقّي حجر السـلالم كما يدقُ كعبـك العـالي طرف القلب ويترك قطعة صغيرة منه لكلاب الشـارع. كم أُحبُّ الحـذاء العـالي لأنـه يشـد الساقين في كلية الأنوثة المتأهبة للانـدلاع. والحـذاء العـالي يختصـر البطن ويفتـح انحناءة لبطن ينكمش من عطش. والحذاء العالي يدفع النهدين ليتكورا ويشرئبًا على المارة المحرومين مما يهتفون. والحذاء العالي يعُبُّ القدمين في أُهبة الرقص فوق الدخان المتصاعد من رغبـة محروقـة. والحـذاء العالي يتلع الجيد كلحظة انقضاض الخيول على هاويـة. والحـذاء العـالي يوقف الـرمح على منبر من هواء صلب. دُقّي بلاط الشـارع بنفـور غزال لا تتلقَّفـه ذراعـان ولا كلمات. واتضحي رويـداً رويـداً خلف البـاب المغلق. أمـام البـاب مقعـد جلدي صغـير يحملنا ويَتّسع لنا. سأجلس أولاً وتجلسـين. فغـرفـة النـوم مكشـوفـة من جهة البحر الذي يرانا، ويتـوعـد، ويقصف. وغرفةُ الاستقبال مكشوفة من جهة البحر. وغرفة المكتبة مكشوفة من جهة البحر. لم يبق لنا غير هذا المقعد الصغير، ارتجفي وانتفضي وانقصفي، ولا تنـزعي ثيـابـك لئـلا يزانـا المـوت عاريين. فرس على حضن رجـل. لا وقت لغيـر الحبّ السـريـع ونـزوة الخلود العابر. لا وقت للحب في

حرب لا نسرق منها غير امتصاص مصادر الحياة. أمن طبيعة الحرب أن تخلق هذا الشبق؟ أمن طبيعة الخوف من الموت أن يتوتّر هذا التوتّر؟ يدان تخرمشان الحائط لمنع القطط من الرحيل. وفم مفتوح لأصوات البراري الموحشة لإغراء الذئاب .وأُحبُّ هذا الحبَّ الذي لا ثرثرة فيه ولاأناقة كلام وارتداء ثياب على مهل وعلى مهل. لا وقت لذلك الطقس الذي يبدع الغربة وتباطؤ الخروج من العناق، فنهرب إلى سيجارة ندعي تأمُّلَ ما ترسمه من دوائر الدخان الأزرق.

ونَنظر إلى الساعة لا لترى الوقت بل لنعرف ما يتسلَّل أحدُنا من الآخر. وأحب هذا الحب الذي يترك وجعاً في الذكريات ولاندبه في الروح. حب يُزود الروح بهبوب الفراش على وردة الروح. لحظة عابرَة أبقى وأنقى جمالاً من بير وقراطية الحب الطويل المحتاج إلى ادارة شؤون المواعيد وصيانة الحنين من العطب. نزوة هي مجال الشاعر في التباس التشابه بين المرأة والأغنية. نزوة هي حرية الصمت المتحرر من آخر ينقلب الصمتُ معه إلى غربة، عالمان لا يتداخلان بغير القمع. لا مساواة في العاطفة. عالمان يعودان ـ حين يصمتان ـ إلى ما كان من ذكريات لا تتصالح بقدر ما تتصادم. وأحب الحب على هذا المقعد الذي لا يحتاج إلى إعادة ترتيب لأنه لا يتجعلك، كما كنتُ أُحبُّه على ظلام صخرة على شاطىء بحر، أو في سيارة تختبىء في غابة صفصاف، أو في قطار ليليّ لا نعرف فيه الأسماء، أو في رحلة طيران ليلي طويلة، أو على سياج ملعب يصفِّقُ فيه الجمهور لخطاب يشارك فيه العاشق العابر العاشقة العابرة الرقص والهتاف على نداء أوْجٍ آخر. أُحب هذه اللحظات النزوات المتحررة من الكلمات والواجبات. ولكن الحرب تضفي تصوُّفاً شهوانياً على هذا الاختلاس الرائع. فما أجمل أن يموت الإنسان على ضفَّة نهر العسل الحامض، بلا فضيحة وبلا عُرْيٍ وبلا أولاد. ما أجمل أن نتغلَّب على الحرب فينا بهذا الخوف الذي يُوحّد الجسدين. وما أجمل أن نُودّع أيامنا على انفتاح وردة تعرق وتشهق وتتمزَّق من احتكاك الندى والملح، تحت قصف جويّ

وبـريّ وبحـريّ نسـوس فيـه مسار اللذة المستقيم صعوداً، ساخرين من عواء الحـديـد بعـواء اللحم والـدم والعصب المشدود. فلا تسأليني إن كنت أحبك أيتهـا الفـرس الطالعة من مداثح أخرى. أيتها الفرس التي تترجل عن حضن فارسها لتذهب إلى مهرتها الصغيرة، التي ترعى بين الصواريخ وأقداح البيرة وأستـاذ الكيميـاء والممـرضـات النبيـلات القادمات من اسكندنافيا لاستبدال الموت إحباطاً وغماً بالموت في قضية. لا تسأليني إن كنت أحبك، لأنك تعرفين كم يعبدك جسدي الباحثُ عن سلامته في جسد، خذي خبزاً وزجاجة ماء، لتقـولي إنـك كنت تبحثـين، من ساعة، عن خبز وماء. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنـك لم تذهبي معي، كما ذهبت السـوسنـةُ الطالعة من نشيد الأناشيد. ستـزورين قصيـدتي يا «ج» لأنـك اختفيت كما اختفت. وستخرجين من منام يخرج من منام يا «ج» كما خرجت السوسنةُ هذا الفجر.

* * *

. . والقصف يقصف كُلَّ شيء، يقصف حتى الخـوف. أفكّـر في هذا الـركن القصيّ بهذا الشـاب البـاكستـاني الغـائب. ما الـذي جاء به إلى هذه المـدينـة من آسيا البعيـدة. كان يطـارد الـرغيف فاصطـاده الـرغيف في هذا الحصـار. استدرجه الرغيف من لاهور، جعله يلهثُ آلاف الكيلومترات كي يلامس هذه المعجـزة الإنسـانيـة: رغيف الخبـز، رغيف الخبز الذي يقتله في خرب لا شأن له فيهـا، فلا يعـودُ حيّـاً أو ميتـاً إلى أي مكان، لا يعود إلى أي قبر. باطلُ الأباطيل الكل باطل. وأفكّرُ في الطرائق المُعقدة لنهاية جسد كافح حتى النضج ليحترق أو ليختنق. باطل الأباطيل، والكُلُّ باطل. وقد علمتنا معاشرةُ الموت أن الموت لا صوت له. إذا سمعتَ صوت الصاروخ فذلك يعني أنك حي، ذلك يعني أن الصاروخ قد أخطأك وأصاب غيرك، أصاب العامل

الباكستاني على سبيل المثال. الصاروخ يسبق صوته. إن لم تسمع صوته فاعرف أنك مت. باطل الأباطيل والكُلّ باطل. ولكن ما سرُّ هذه المناعة؟ أشعر بنعاس لا يقاوم.. نعاس أقوى من أية قوة.. نعاس سلطان..

ولكن «س» يوقظني. أراه مدججاً بمسدّس طويل، ومتكئاً على لعبته العاطفية. أين كنت؟ أين كنت؟ اجلس معي إذا استطعتَ أن توقف ثرثرة السيدة، أو أرسلها إلى أيِّ جحيم.

ـ أين اختفت؟

ـ على إحدى الجبهات

ـ ما هي أخبار الشباب؟

ـ صامدون. ولا يهتمون بنتائج المعركة. إنهم صامدون ويقاتلون. ولكن الناس تعبت ويقال إن صمودهم مرتبط بخروجنا. هل صحيح أننا سنخرج؟

ـ طبعاً.. سنخرج. ألم تعرف أننا سنخرج؟

ـ كنت أظن أن الخروج مناورة. هل سنخرج حقاً؟

ـ سنخرج حقاً.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان عربي يقبل بنا.

ـ ألا يقبلون حتى استقبالنا خارجين؟

ـ بعضهم لا يقبل حتى جثثنا. وأمريكا تطلب من بعضهم الموافقة على استقبالنا.

ـ امريكا؟

ـ نعم.. أمريكا.

ـ هل تعني أن هذا البعض يريدنا أن ننتحر ونبقى في بيروت؟

ـ هذا البعض لا يتحمَّلُ صمودنا. ولا يدعونا الى الانتحار أُسوة

بالكولونيل الليبي. ولا يريد لنا أن نبقى في بيروت، أو في أي مكان على الأرض. يريد لنا أن نخرج... أن نخرج من العروبة ومن الحياة.

- إلى أين؟

- إلى العدم!

- ومتى سنخرج؟

- بعدما نحصل على عناوين للخروج. وبعدما نحصل على ضمانات بحماية المدنيين الباقين هنا، وبحماية المخيمات.

- أهناك ضمانات؟

- هناك ضمانات وقوات دولية ستصل لحماية المخيمات، ولكن السفير الايطالي قال لي، البارحة، كلاماً مثيراً للقلق. قال: لا أحد يضمن ألا يدخل الاسرائيليون بيروت بعد خروج المقاومة.

- ألا يمكن إخفاء فكرة الخروج، لأنها قد تؤثر على معنويات المقاتلين؟

- هذا صعب لأن المفاوضين يذيعونها. والدولة اللبنانية متلهفة بحجة أنها تطمئن المواطنين.

- ولكن، لماذا سنخرج؟

- لا أحد يوافق على بقائنا، لا الداخل ولا الخارج. ولا تنس أن البلد ليس بلدنا. انتهتْ مُدّةُ الضيافة. وبعض أطراف الحركة الوطنية يُهَدِّدُنا. ولم يَبْقَ ما نعتمد عليه: لا مقوّمات داخلية، ولا مدد خارجي.

كان «س» أشدَّ الناس قلقاً من هاجس الخروج، فهو يُخشى اليُتم الجديد، يَخشى أن ننساه في زحام هذه النهايات. كان واحداً من مئات الكتاب المهاجرين إلى مشروع الثورة المتحول إلى بيت وهوية، لا يملك ما يدلُّ عليه، لا بطاقة هوية ولا جواز سفر، ولا شهادة ميلاد. ولهذا وَجد فينا أهلَهُ ووطنه، نحن الذين لا أهل لنا ولا وطن. وكان مع المهاجرين السوريين

والعراقيين والمصريين والفلسطينيين قد أنزل على بيروت معاني نهائية تمنح التباس العلاقة بها شرعية حق المواطنة إلى درجة أجفلت الكثيرين من اللبنانيين الذين يعرفون مدينتهم ومجتمعهم أكثر منا، ويعرفون أنها لا تحتمل هذا الاسقاط. وقد لاحظ بعضهم أن السهولة التي يُوحي بها التعامل مع بيروت، نصاً مفتوحاً للصراع والكتابة، قد بلغت هامشاً من الرهافة يستحق الحذر. ولكن بيروت هي المكان الذي شهد ازدهار التعبير السياسي والإعلامي الفلسطيني. وبيروت هي مهد آلاف من الفلسطينيين الذين لم يعرفوا مهداً آخر. وبيروت هي الجزيرة التي طفا عليها المهاجرون العرب الحالمون بعالم جديد، وهي حاضنة ميثولوجيا البطولة القادرة على تقديم وعد آخر للعرب غير وعد حزيران. فكان كل واحد يُمسك بما يعنيه من اسم بيروت الذي فتن الجميع إلى حد ارتكاب أخطاء لم ينجُ منها أحد، ودون أن يتمكن أحد من تحديد المعنى الشامل لهذا الافتتان. وهكذا تحولت العلاقة ببيروت إلى ادمان جعل اللغة مجازية إلى درجة المواطنة، في غياب الدولة التي قهرت مواطنيها في كل مكان آخر، مما جعل استباحة الدولة، أية دولة في هذه الدولة، أحد اشكال التدرب العربي على ديموقراطية متخيَّلة. فصارت بيروت مُلْكَ من يحلم بنظام آخر في مكان آخر، واتسعت لصياغة فوضى ذات جانب تعويضي حلّت في كلّ غريب عقدة الغربة. وصارت شرعية الانتماء إلى بيروت انعكاساً لشرعية المعارضة لنظام البطش العربي، فلم يعد على اللاجىء إلى بيروت واجب مراعاة نظامها المفكّك، بل أباح لنفسه حق التحالف الداخلي لمواصلة تفكيكه خدمةً لمشروع ديمقراطي أكبر يخاطب خارج بيروت أكثر مما يخاطب داخلها. ومن هنا، أحسَّ المقيمون في بيروت، في تحالفهم مع أطراف قواها المتصارعة، بمقاييس أخرى للغربة والمواطنة حُدِّد فيها للبنانيين أنفسهم وبمساعدتهم مقدار حقّهم في وطنهم، لأن الوطن تحوَّل من جمهورية إلى مواقف. وفي الشعر أيضاً، لم يكن عُشّاق بيروت لبنانيين. وحين أنشد الرحابنة للوطن لم يُنشدوا لبيروت. كانت أُغنية الحب الطالعة من

الحرب «بحبك يا لبنان». لقد تمّ استثناء بيروت لأنها لم تعد بيروت لبنان. ليست ببيروت، في الاعتبارات الطائفية، لبنان. بيروت صارت عربية يغني لها العرب. وصار في مقدور شاعر لبنان سعيد عقل أن ينأى بلبنانه الجمالي إلى أقصى غابات العنصرية، ليرى أن الحرب لا تدور بين «جيش لبنان وجيش فلسطين» فحسب، بل إنها حرب ضد شعب بأسره. «الطفل الفلسطيني عدو»..

«س» وآخرون كوّنوا بيروتهم، صاغوها على صورتهم. وبلا مجاملة دخلوا في النسيج الداخلي للصراع الثقافي. وحين انفضّ عنهم حلفاء الثقافة وجدوا أنفسهم تحت العراء.

لقد سبقت الغزو الاسرائيلي عودةُ الكثيرين من المثقفين إلى أصدافهم الإقليمية، تعبيراً عن انهيار المشروع العلماني، وعن نزعة المثقف إلى الاحتماء بالطائفة في عراء الهزيمة الملوحة في الأفق.. جَرَتْ إعادةُ اصطفاف طائفي احتلت فيه الطائفة الممتازة مكانة النموذج. وقفز بطل الطائفة، الخارج من قاع الجريمة، إلى بطل منذور لسائر المعبرين عن طوائف أخرى تحتذي استلابها، فتسابق شعراء البديل السابق، إلى إيوان الشرقية للحصول على صك غفران في محبة لبنان ممن أتقنوا ارتداء القناع الفاتن «تحرير لبنان من الغرباء». لقد احتاج الخراب إلى دولة، واحتاج الخائفون إلى أية دولة.

فازدهرت الحياة الثقافية في المنطقة الشرقية المرشحة لتوحيد الوطن، وازدهر كازينو لبنان بعروضه الفنية التي لم ينقصها غير فرقة الرقص الليبي المحاطة بدويّ إعلامي صاخب. ولم يتساءل أحد عن المغزى السياسي للهفة الكتائب على الرقصات الليبية، فقد كان المغزى شديد السخرية والوضوح.

وحين سجّل «س» ملاحظة «الكرمل» على عودة بعض المثقفين من المشروع الديمقراطي إلى الصدفة الطائفية، حولونا إلى «سُنّة». وانهالت علينا الحملات والتهديدات من الشعراء والرسّامين والمسلحين الذين اعتبروا

نقد عودة المثقف إلى الطائفة تشهيراً منا، كمعبرين عن طائفة، بطائفتهم. وحين كنت أقسم بأنني لا أعرف ما هي طائفتي لم يصدقني أحد، لأن الوباء كان قد استشرى، ولأن أيّ فهم لما يجري في لبنان خارج حدود الفهم الطائفي هو فهم قاصر. كان «س» يحمي كتابته بعضلاته، فواصل زيارة مقاهي شارع الحمراء ومقارعة الحجة بتحسّس المسدس. أما أنا، المشاع للحملات الصحافية، فلم أنجح في تبرئة نفسي من جريمة القول إننا «جزء.. لا جزيرة»:

«.. التجربة مفتوحة على حوار الإبداع والأفكار، فنحن ما زلنا نحاول ملامسة التطبيق العملي لخيارنا الوحيد: الإبداع في الثورة، والثورة في الإبداع، لنتجاوز التجني الذي يرتكبه الميل العام إلى المناداه بالاختلاف، أو الخلاف، بين مفهومي الثورة والإبداع، حيث يحاول أحد أطراف هذه الميل تحقيق الطلاق بين اللغة الأدبية وبين الواقع لبلوغ «الأدب الصافي». ويحاول الطرف الآخر جرّ الأدب إلى تقديم الخدمات اليومية المباشرة للبرنامج السياسي. نحن نتاج هذا الواقع وهذا الزمن الذي تختلط فيه الانهيارات الواضحة بالولادات الغامضة، ولا نتوب عن أحلامنا مهما تكرر انكسارها. ولا نواجه الأزمات التي تلتفّ حولنا بإسقاط الفكرة، وبالنزهة في الماضي والتراث. لأننا لا نكتفي فقط بتحديد المساحة بين الدم والنفط. فقد اخترنا أن نعتقد أن المستقبل يولد من هذا الحاضر، بالطريقة التي ننخرط فيها في عملية التغيير ولا يأتي من ماض يتحول من الأزمات إلى سيّد الأيام. وحين نلاحظ أن الثورة لم تكتب بَعْدُ أدبها إلا بالجسد، فإننا ندرك أن معادلة الفعل - القول المترابطة في سياق التجربة تنضج لتنتج الأدب الجديد. وندرك أننا جزء من الثقافة العربية الوطنية لا جزيرة فيها. لذلك لم نقبل أن يكون صوتنا هو صوت الهوية الضيّقة، بل ميدان العلاقة الأعمق بين الكاتب العربي وزمنه الذي تتخذ فيه العملية الثورية الفلسطينية شكل كلمة السر العلنية حتى الانفجار العام. إننا لا نؤسّس تياراً في الأدب بقدر ما نشير إلى سياق أو مجرى

كبير يعطي مفهوم وحدة الثقافة العربية الوطنية شكلاً من الأشكال، في وقت يتعرض فيه إلى أكثر من محاولة تفتيت أو وأد، وهي الثقافةُ المفتوحة على تاريخها في تعدُّد مصادره. وهكذا لا نقول إن الشرق شرقي كله، ثقافياً، وان الغرب غربيٌ كُلُّه. فنحن لا نعرف شرقاً واحداً ولا نعرف غرباً واحداً، ولا نريد أن نُحْبَس في معنىً لم نختره بحرية. وهكذا لا نتعامل مع حملة التصدِّي للغزو الثقافي الغربي الرائجة في هذه الأيام، بعدما أطلقها كراس أو كرّاسان، إلا بقدر ما تستطيع هذه الحملة التمييز بين المصطلحات، وتحاشي الوقوع في بئر تغلق علينا الأفق كُلَّه، وبقدر ما توضع في سياق البحث عن استقلال يرفض التبعية ويرفض التآكل معاً. وحين نرى إلى انحطاط بعض مستويات الثقافة، وهيمنة الطفيليات الطائفية عديمة الكفاءة والموهبة على غذاء الناس اليومي أو الأسبوعي أو الشهري، فاننا لا نعلّق: هنا الأزمة فاهربوا.. بل نضع الظاهرة في عنوانها السياسي، ونتنبه.. ننتبه إلى أسلحة الأدب القادرة على إخفاء خيانتها وادعاء القداسة وهشاشة الأحلام تحت غطاء الاشمئزاز من السياسة، أي من الصراع. لا، لسنا غرباء على أية أرض عربية. الغرباء هم الذين يشيرون إلى غربتنا بأصابع اتهام، لأنهم غرباء عن تاريخهم وعن معاني وجودهم، غرباء في موجة عابرة لا يرى فيها اللصُّ غير وجوه اللصوص. وإذا كنا لا نستطيع مجاملة السلفية فاننا لا نرضى الاستقرار في فوضى التجريبية التي لا تريد أن تقول أكثر من تجريبيتها. وإذا كنا نشكو التقصير من القدرة على إتقان لغة الناس، في العملية الإبداعية، فإن ذلك لا يمنعنا من الإصرار على التعبير عنهم لنصل إلى لحظة يُحقّق فيها الأدب عرسه الكبير، حين يصبح الصوت الخاص هو الصوت العام. نعم، إن للأدب دوراً... وان انقطاع التفاعل بين النص وبين الذين يتحول النص - فيهم - إلى قوة، هو اغتراب الأدب الذي يصفق له الآن المبشرون بالهزيمة النهائية لكُلِّ شيء. وهنا نستصرخ النقد، نستصرخه ليستردَّ الإيمان بشجاعته وجدارة، نستصرخه ليدخل الساحة المستباحة، نستصرخه ليُرسي المعايير التي أباح

غيابها للجهل وللثورة المضادة أن يتبطنا في إدعاء الحداثة. ندعو النقد الى إعادة النظر، على سبيل المثال، في حركة الشعر العربي الحديث التي اتسعت لشن الحروب كُلّها ووصلت إلى مفترق طرق أعلن، على الأقل انهيار وهم وحدتها السابقة. وندعوه إلى تمزيق حصانة النصّ الشعري الذي لا يقبل أداة النظر فيه خارج أدواته، فيما يُحمِّل نفسه بكل ما هو خارج إدعائه من حمولة أيديولوجية يحتكر إخفاءها. ويحرم الناقد أو القارىء من حقّ إعلانها. ولنسأل عن دكتاتورية النصّ. لقد أوصلنا الحياء أو الجهلُ إلى درجة صار معها التقدُّم يخشى الإعلان عن نفسه. وأدنى من ذلك: صارت سلامةُ اللغة تخلفاً.

واستقامة الوزن رجعية. وصار الوضوح عورة. وصار القولُ ووصول القول همجية. وباختصار: تقدمت الرجعية، القادرةُ على الوقوف يساراً، بكامل عدة الحداثة الشكلية، حافلة بمعاني السلفية. واستطاعت أن تستدرج الآخرين إلى اسئلتها في مرحلة انتكاس المعاني العربية الكبيرة، وعودة أبناء الطوائف الضالّين إلى طوائفهم، أو تصوفهم، أورموزهم.. معلنين التوبة عن عمر أضاعته حركات التحرر التي لم تُسْفر إلاّ عن صعوبات لم تكن متوقعة، وأضاعته الثورةُ التي دلّت على أنها باهظةُ التكاليف، في مرحلة اجتياح «الثقافة» النفطية أغلبية المنابر والمؤسسات الثقافية والإعلامية، غير مكترثة بإعلان فارق جوهري بين مستوياتها وأيديولوجية مصادرها، لأن تدمير الثقافة والمثقفين هو النتيجة الوحيدة الواضحة لظاهرة «رعاية» النفط للثقافة.

هكذا تتحدّد صعوبة المعركة التي نخوضها في سؤال الأدب، وهي انعكاس مباشر أو مُحَوَّر لهجوم الرجعية السياسي والفكري التي لا تفتقر إلى أسباب الإفادة من فشل «رجعيات التقدُّم». وحين نكتب ونستكتب تحت شعار حرية الإبداع فإننا لا نستقطب غير نقاط الضوء والبدايات التي بعثرها الانقسام حول فكرة أبسطُ مقوّماتها: أننا نريد أن نحرر أنفسنا، وبلادنا، وعقولنا، وأن نعيش عصرنا بجدارة وكبرياء. وما دمنا نكتب فإننا نُعبِّر عن إيمانه بفاعلية

الكتابة. من هنا، لا نشعر أننا أقلية. نعلن أننا الأقليةُ ـ الأغلبية. ونعلن أننا قادمون منَ هذا الزمن.. لا مَن الماضي ولا من المستقبل..».

لماذا أصابهم هذا الكلام بالهستيريا؟

لأنهم يريدون لنا أن نكون جزيرة محاصرة..

سألني «س» للمرة العاشرة: إلى أينَ سنذهب؟

قلت: لا أعرف. إنِ هناك ضابطاً في غرفة العمليات لتحديد العناوين وأسماء المهاجرين.

قال: رُبَّما ينسونني

قلت: ربّما..

خاف. خاف إلى درجة نَهَرَ معها امرأته الثرثارة التي تعرف كل شيء، وتمتلك جواباً لأيِّ سؤال: إخرسي! قالها بإنجليزية كُرْديَّة جعلتها تصمت لمدة عشرين ثانية كاملة، واصلت بعدها ثرثرتها. إنها راديو مفتوح لا يكترث بالمستمعين. إنها أقسى من حصار. كان يطفىء أسئلة ضياعه في وهم غرابتها. كان يستوطنها قارباً أو ملجأ. كان ينتمي فيها إليها، إلى ما يُسند الغربة بالغربة، ريثما يعرف أين هو.

وجدت له حلاً: إبق معي

استبشر خيراً: أين؟

قلت: هنا في بيروت

صاح: هل أنت باق

قلت: نعم. باق

قال: ولكنني لا أحمل جواز سفر ولا بطاقة هوية. مُزَوَّرة، كل أوراقي مزورة. فكيف أبقى، وإلى أين أذهب؟

قلت: أين تريد أن تذهب: السودان، اليمن، سوريا، الجزائر؟

قال: هل تعلم أنني لم أسافر مرة واحدة في حياتي.

قلت: ستسافر كثيراً، يا بنيّ، ستسافر كثيراً.

في هذا البار الصغير، شربنا في السنين الفائتة، وفي هذا الحصار، شربنا من عصير الشعير ما يجعل الحمير تنطق شعراً.

- بالمناسبة، أين المثقفون الغاضبون منا. لم نسمع أصواتهم منذ بدأ الغزو؟

- لقد ذهبوا إلى الجنوب.

- ليقاتلوا الغزاة؟

- لقد اشتاقوا إلى عائلاتهم. وقد يصبح بعضهم شعراء أرض محتلة، أو شعراء مقاومة.

- ألا يزالون يخافون من هذه العقدة؟

- ولن يخلصوا منها

- إذن، لماذا يحذفون المثال؟

- ليكبروا، ليقتلوا «الأب» ويستقلُّوا.

- هل تتوقَّع تحولاً في كتابتهم؟

- لا أتوقع شيئاً.

- ولكنهم أبرياء وطيبون

- وأسرى نموذجيين متناقضين

- سيكبرون في التجربة

- في الطائفية لا يكبر أحد

- ليسوا طائفيين. هم يتامى وخائفون. والطائفية موجة حماية عابرة.

- إذن؟ لماذا يستقوون علينا؟

- لأننا غرباء. . ولأنَّ الدولة بدأت عملية تكوُّنها. سينتخب الإسرائيليون بشير الجميل رئيساً للدولة.

* * *

. . يا سيدة لبنان إحفظيه لكُلّ لبنان ـ الدعاء الخافت ينتشر كالخيمة النبوية، كالسقف مرفوعاً على أبراج الدبابات الإسرائيلية. والعادةُ الإسرائيلية السرية تتحوَّل إلى زواج علني. والإسرائيليون يتمددون على شاطىء جونيه. وبيغن يلتهم، في عيد ميلاده، دبابة «مركباه» مصنوعة من الحلوى، ويدعو إلى توقيع معاهدة سلام، أو تجديد المعاهدة القديمة بين إسرائيل ولبنان. ويعاتب أميركا: لقد أهديناك لبنان. .

ما هي هذه المعاهدة القديمة المرشحة للتجديد؟

إنَّ بيغن لا يعيش في زماننا، ولا يتكلَّم لغتنا. إنه شَبَحٌ قادم من عهد الملك سليمان، وهو العهد الذهبي في التاريخ اليهودي العابر على أرض فلسطين، حيث «جعل النقد في أورشليم عادياً كالحجارة. وبنى الهيكل الباذخ على هضبة، وزَيَّنه بخشب الأرز والصندل والفضة والذهب والحجارة المنحوتة، وصنع العرش الملكيّ من العاج المطليّ بالذهب. وأبرم معاهدة مع حيرام ملك صور الذي أمدَّه بالمعادن والعمال الاختصاصيين، واصطاد معه السمك في البحر الأبيض المتوسط. سليمان يبني المراكب وحيرام يُقَدِّم له الملاحين. سليمان يبني الهيكل ويحكم بعدما دان له الملك، وتعلَّم شعبه من الفلسطينيين صهر المعادن وصكَّ الأسلحة، وتعلم الملاحة من الفينيقيين، وتعلَّم طرق الزراعة وبناء البيوت والقراءة والكتابة من الكنعانيين. . . ».

بيغن يتقمَّص سليمان. يتخلَّى عن مزايا سليمان، عن حكمته وأناشيده ومصادره الثقافية. ولا يأخذ منه غير العصر الذهبي المرفوع على دبابة. لا يتعلَّم منه عبرة سقوط المملكة حيث ازداد الفقراء فقراً وازداد الأغنياء غنى. . لا يعنيه منه غير البحث عن ملك صور لتوقيع معاهدة سلام. أين ملك صور؟ أين ملك الأشرفية؟ بيغن يُجمِّد التاريخ عند هذه اللحظة ولا يصل إلى نهاية الهيكل الذي لم يبق منه سوى حائط للدموع، حائط لا يدلُّ علم التنقيب عن الآثار على أنه أحد أبنية سليمان. ولكن، ما لنا ولتاريخ ما خرج من التاريخ؟ فكُلُّ شيء بقي على حاله في وعي ملك الخرافة. . ومنذ ذلك الوقت

لم يفعل التاريخ شيئاً في فلسطين وعلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية غير انتظار ملك الخرافة الجديد: مناحيم بن سارة بن بيغن الذي سيحمي الهيكل الثالث من الغضب الداخلي ومن الغضب الخارجي، بالتحالف مع ملك الأشرفية بشير بن بيير بن جميل..

* * *

فدائيُّونَ من حَبَقٍ وحُرِيَّهْ
ومنذورون للجمره
على قرميد أُغنيَّه
وشهوةِ شارعٍ صاعد
على أُسطورةٍ حُرَّه
هي الثورة،
هي الثورهْ..
خنادقهم هواء البَحْر
وظلُّهُمُ يَشُقُّ الصخرْ
نشيدٌ نشيدهم واحدْ:
فإمَّا النصر
وإمَّا النصر
ومنهم تُولَدُ الفكرهْ
هي الثوره،
هي الثوره..
وُلدنا فوق أيديهمْ
كما تتفتَّحُ الزهرهْ
فكَمْ مَرَّهْ

وكم مره
سيُولد في ابنه الوالدُ؟
وتحملُ غابةً بذره
هي الثوره . .
هي الثوره . .

* * *

. . . وفي ساعات العصر هذه، تتدلّى السماء أكثر، مثقلةً بالرطوبة والدخان والحديد، سماء تصير إلى يابسة. ولا تستطيع المبارياتُ الإذاعية على صوت فيروز، الأثر الوحيد على وطن مشترك، أن تشير إلى شيء وإلى مشترك، لأن الصوت قد انفصل تماماً عن مصدره، رحل عن أرضه إلى تجريد أزرق لا يخاطب العاطفة في وقت تحوّل الحرب فيه كل شيء إلى تفاصيل. أحبك يا لبنان - إعلانٌ لا تصفّق له بيروت المشغولة بشوارعها المقصوفة، المكثفة في ثلاثة شوارع. وبيروت لا تبدع غناءها، فذئاب الحديد المتوحشة تنبح من كل ناحية، والجمالُ المُغنّى له، المعبود، ينتقل إلى ذاكرة تشتبك الساعة فيها بأنياب النسيان الفولاذية، الذاكرة لا تتذكر بل تستقبل ما ينهال عليها من تاريخ. أهكذا يصير الجمال السابق، الجمال المستعاد في غناء لا يناسب مقام الساعة جمالاً مأسوياً؟ وطن ينهار ويُرَمَّم في حوار الإرادة البشرية والحديد، وطن يرتفع على حنجرة تطل علينا من السماء، حنجرة وحيدة، توحد ما لا يتوحّد، وتؤلف ما لا يتآلف. هرب الكلامُ إلى البعيد. أخذ الكلام كلماته وطار. فليس هذا الصوت صوت عذابنا، ليس صوت الجنون.

وفي ساعات العصر هذه، يعجز البدن عن حمل أعضائه، وتعجز الروح عن الطيران. تتكوم فوق مقاعد الخوف واللامبالاة عاجزة عن الكلام. ونحن نجلس عاجزين حتى عن تبادل النظرات. آب بيروت لا تنقصه نار جديدة.

خلفنا مدرسة تحولت إلى مستشفى. تحوم الطائرات بشراسة حول المستشفى. قال أستاذ العلوم السياسية القادم من الولايات المتحدة: سنصاب حتماً. فلنهبط إلى الطابق الأول. كان من الصعب إيقاظ «غ» فهي نائمة منذ شهر. ظننتُ أنها مريضة في الكبد. ولكنهم قالوا إن الخوف الشديد يدفع الخائفين إلى النوم العميق، النوم المتواصل. إنها تنام وهي نائمة، تصحو وهي نائمة، تمشي وهي نائمة، وتأكل وهي نائمة. غبطناها على نظام الوقاية الذاتي. ولم يكن الطابق الأول أكثر أماناً من الطابق السادس، فلو قصفت البناية لبقينا تحت الأنقاض. تزايدت وتيرة الطائرات وازداد انخفاضها. قلتُ لأستاذ العلوم السياسية كي نخرج مما نحن فيه: أظن، يا دكتور، أن الجدل حول الجامعة المفتوحة قد انتهى الآن. قال: وانتهت مرحلة كاملة من مراحل العمل الفلسطيني واللبناني الوطني. وأوشكت تجربة المجتمع الفلسطيني الجديد في لبنان على الانتهاء. قلت: ومن أين تبدأ المرحلة الجديدة؟ قال حاسماً: ليس من الصفر كما قد يقال، ليس من البياض، بل من التراكم. لقد أنجزنا الكثير وعلينا أن نواصل تطوير ما هو صالح للتطوير.

لم يعد في مقدورنا تركيب جملة كاملة، وكان علينا أن نُعيد تركيب عناصر تجربة تتعرض للانهيار. لم يكن الرجل موحشاً، كان يعتني بأصوله القديمة ويفاخر بجذور تعرضت للاقتلاع منذ أربعين عاماً. يأتي من شيكاغو كل عام ليتدفأ بانبعاث شعبه. وقد ملَّ الغربة الطويلة في كلية العلوم السياسية هناك، وسكنه هاجسُ إنشاء جامعة مفتوحة للطلبة الفلسطينيين في الشرق الأوسط يكون مقرها لبنان. أن تطعن في جدوى الفكرة وقابليتها للتطبيق معناه أن تعتدي على أغلى أحلامه، فيتحول إلى كتلة من الأعصاب للدفاع عن مشروعه. كان المستوى التعليمي ينخفض في الجامعات. ولم يتورَّع بعض الطلبة عن تهديد الأساتذة بالسلاح، للحصول على علامات أفضل. كانوا يدخلون قاعات الامتحان مدجّجين بالمسدسات. كم من شكوى تلقيناها دون أن يتمكن أحد من معالجة المشكلة بسبب اختلاط الهوية التنظيمية.

وقبل ذلك كان الخناق يضيق حول الطلبة الذين لم يجدوا جامعات عربية لاستيعابهم. وكُنت أمازح الدكتور: أفي مثل هذا المناخ الذي نعجز فيه عن ضبط شروط امتحان تؤسس جامعة مفتوحة تحتاج إلى استقرار اجتماعي ومستوى تربوي آخر؟؟ ولكن الدكتور كان شديد الإيمان بنجاح الفكرة، وبالأداة. كان ينظر إلى واقعنا من بعيد. ومن بعيد تخفي الظواهر تفاصيلها وتقدّم السطوع.

- ما هو مشروعك الآن؟

- سأعود إلى شيكاغو

- والجامعة المفتوحة؟

- أغلقت..

دخل علينا الأميركي الذي يظهر حين ينبغي له أن يختفي، الأميركي السعيد بما يرى، الشاهد على ما لا يتوافر لسواه من نعمة التجربة. حرب وحصار، أهنالك ما هو أكثر إثارة لأميركي يلهث وراء أية مأساة بكاميرا ودفتر وزوجة في هذا الموت؟ سميته «الكوسمان» لأنه عاشق القضايا الساخنة. ولم أطمئن إلى ما يبدي من افتتان بحرب تمدُّه بثروة إعلامية. كان علينا أن نموت أكثر ليعمل أكثر، وليتنشي بمعايشة الضحايا. جاء من نيويورك، خصيصاً، ليتفرّج علينا. لم يكن صحافياً محترفاً يركض وراء الخبر لخدمة المهنة. كان هاوياً يصور المآسي بعدسة كاميرا تلفزيونية وعلى أشرطة تسجيل.

- ما هو شعورك؟

- عكس شعورك.

- ماذا تقصد؟

- ماذا لا تقصد؟

- هل ستعترفون باسرائيل؟

- لا..

كان الدكتور قد استدعي إلى القيادة ليشارك في صياغة عبارات قانونية غامضة تداور حول هذا السؤال الذي كان يشارك في القصف. . عبارات غامضة حول قرارات مجلس الأمن. كانت الضحية مطالبةً بالاعتراف بحقٍّ قاتلها في قتلها. كان المطمورون تحت الأنقاض مطالبين بإعلان شرعية قاتلهم. لم تكن الفرصة مواتية لمثل هذا الاغتصاب السياسي، بقدر ما كانت الساديَّة أسراباً من الطائرات. لأول مرة يُطالبُ غيابنا بالحضور الكامل: الحضور من أجل تغييب الذات. من أجل الاعتذار عن فكرة الحرية. من أجل القول إن غيابنا حقّ من أجل تزويد حقّ الآخر بحقٍّ تقرير مصيرنا. الآخر الحاضر في كامل أجهزة القتل يطالبنا بالحضور قليلاً من أجل إعلان حقّه في دفعنا إلى الغياب النهائي. .

ـ لماذا نطالَب، الآن، بالاعتراف؟

ـ من أجل سلامتكم، ومن أجل سلامة العالم.

ـ الغريق لا يحرص على جريان النهر. المحترق لا يحرص على بقاء النار مشتعلة. والمشنوق لا يحرص على متانة حبل المشنقة. .

* * *

كنتُ أحمل عنقود عنب وجريدتين، حين انقضّ عليَّ حرف «الهاء» الخائف، الخائف أبداً، في السلم والحرب، الخائف من أيِّ شيء: من ليلة بلا عاشق، من عام بلا كتاب جديد، من بيت بلا بيانو، من شهر بلا نقود، من طريق بلا غزل. انقضَّ عليَّ كما تنقضُّ التهمة على لص: متى تخرجون. . متى تخرجون؟ لقد دمرتم بيروت بهذا العبث البطولي.

قلت: تعنين البطولة العبثية.

قالت: لا فرق. أما زلتم تُصَدِّقون؟

قلت: نُصَدِّق ماذا؟

قالت: أيّ شيء. أخرجوا.. أخرجوا كي تعود المياه إلى أنابيب البيوت.

هي دائماً هكذا: عصبية، شقية، ذكية، غبية، وجذابة كعصفور الدوري. نقدّس الماء والعطر. وهي الأولى لكُلّ عاشقٍ من فرط رهافتها ودعتها المتجدّدة. عذراء البدايات من عشرين عاماً، وتُربّي تموجات بطنها لإغراء أسراب الحمام. تندفع وتتراجع. تلعق بلسانها قدم العاشق، تغسل جواربه وقفاه، تحلق له ذقنه، تقدم له النهار على طبق من كستناء، وتقدم له الليل على سرير من فُلّ. وسرعان ما تسخر من اندفاعها وأوهامها: أخطأت. إنه لا يساوي شيئاً. كنا نداعبها أنا وأهلها، ونُسَمّي طباع خيبتها «جورج». هل تذكرين جورج؟ فتقفز من وجهها الطفولي لتعضنا واحداً واحداً. نحن نواصل الضحك وهي تواصل كسر الأطباق.

أحببتُ مروحة عواطفها وبراءة الشيطان فيها، وخوفها من الطائرات حين تجعلها تقفز كجندب فوق الأثاث وتصرخ: بس بس. أبوها يبكي على أي إنسان يموت في أي مكان. أمُّها تُصلّي لسيدة لبنان ليخمي بطلها لكلّ لبنان. وأختها تُعدُّ الطعام لولد لا يشبع، وتنتظر خط الهاتف للاطمئنان على الشاب الفرنسي. وأنا أواصل الاعتذار عن وجودنا في بيروت.

- متى تخرجون؟
- حين يوقفون القصف، ويصبح طريقُ الميناء آمناً. إهدئي يا «هـ» فلسنا نحن الذين نملك هذه الطائرات.

- إلى متى تمضون في شيء لا يوصل إلى شيء؟
- خذي عنقود العنب. وابحثي في الجريدة عمَّنْ مات. إنهم يقصفون حتى بيوت العجزة، ويقصفون الشهداء ليعيدوا إنتاج موتنا.

- هل ستذهبون وتتركون لنا شهداءكم؟

ـ إذا استطعت أن تعيدي إليّ ما في دمك من دمي، فسنأخذ معنا شهداءنا إلى البحر.

ـ لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا بخار المرايا، أحلام منتصف الصيف، وأغاني فيروز عن بيسان.

ـ لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم

ـ وسنأخذ معنا خبز الكلام

ـ لا أقصد أن أجرحكم

ـ وسنأخذ معنا دخان القلوب المحترقة.

ـ لا أقصد أن أجرحكم

ـ وسنأخذ معنا الصمت الذي يسبق غايات القصائد.

ـ لا أقصد أن..

ـ وسنأخذ معنا آثار المطر المتجعِّد على خطى حاولت أن تسمِّي الوقت.

ـ لا أقصد أن أجرحكم...

ـ وسنأخذ معنا ما استطعنا أن نراهُ من هذا البحر. سنأخذه معنا إلى البحر.

ـ لا أقصد أن..

ـ وسنأخذ معنا رائحة القهوة وغبار الحبق المعزول وهاجس الحبر.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا ظلال الطائرات وصوت المدافع في أكياس مثقوبة..

ـ لا أقصد أن أجرحكم.

ـ وسنأخذ معنا ما خفَّ حمله من الذكريات، وعناوين أسطورة، ومطالع الصلاة.

ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ ولن نأخذ معنا شيئاً. لن نأخذ معنا شيئاً.
ـ لا أقصد أن أجرحكم.
ـ لن نأخذ معنا شيئاً. خذي سريري ومكتبتي وحبوب نومي. خذي غيابي كله، خذي غيابي عن المقعد الجالس خلف الباب.. خذي الغياب.

* * *

هل بكيت؟ لقد نزفت الملح السائل، ملح السردين الذي كان غذائي الوحيد منذ أيام. ولم يعد في مقدور الطائرات أن تخيفني كما لم يعد في مقدور البطولة أن تطربني. لا أُحبُّ أحداً ولا أكرهُ أحداً ولا أُريدُ أحداً، أُحسُّ بشيء أو أحد. لا ماضي ولا مستقبل. لا جذور ولا فروع. وحيد كتلك الشجرة المهجورة في العاصفة الكبرى على سهل مفتوح. ولم يعد في وسعي أن أخجل من دمعة أمي ولا أن أرتعش من تقاطُع حلمين وُلِدا في لحظة واحدة عند الفجر..

لتكُنْ بيروتُ ما شاءت، فهذا دَمُنا العاليَ لها
شَجَرٌ لا ينحني. ياليتني.. يا ليتني
أعرفُ الساعة من أين يطيرُ القلبُ كي أرمي لها
طائرَ القلب لكي ينقذني من بدني.
لم أمُتْ بَعْدُ، ولا أعرف هل أكبر يوماً واحداً.
كي أرى ما لا يُرى من مُدُني
لتكن بيروتُ ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها
حائط يبعدني عن شجني
ولنا البحرُ إذا شاءت، وإن شاءت فلا
بحر في البحر. هنا أسكن فيها رايةً من كفني

وهنا أخرج مما ليس لي
وهنا أدخل في روحي لكي يبدأ مني زمني
ولتكن بيروت ما شاءت   ستنساني لأنساك
أأنسى؟ ليتني . . يا ليتني!
أستطيع الآن أن أرجع مني وطني
ليتني أعرف ماذا أشتهي .
يا ليتني
ليتني!

* * *

غروب للغروب . تندفع كُتَلُ الغيوم السوداء المعبأة بالبارود نحو حافة البحر . تحمل الطيور تعبها وتحوِّم باحثة عن بقعة آمنة لا تطالها أجنحةُ الطائرات . غروب يدلنا على ما فينا من تعب . ينهال علينا الظلامُ والفحم والقنابل ليشتاق الجسدُ إلى جسد يضيء شوقاً لا لهفة فيه ولا موت ، شوقاً معدنياً آليّاً لا تخترقه عصافير سرية ولا نغم بعيد ، شوقا مقطوعا من شجرة الطارىء كما يشتاق الوقت الميت إلى حَبَّة فستق مالحة أو إلى أي صوت صادر من راديو . .

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ لقد سئمت ذلك الدرج . سئمت تلك الثرثرة هناك . وهناك شرفة الشاعر الذي رأى سقوط كل شيء ، فاختار موعد نهايته . أمسك خليل حاوي بندقية الصيد ، واصطاد نفسه ، لا ليشهد على شيء ، بل لكي لا يشهد شيئاً ولا يشهد على شيء . لقد سئم هذا الحضيض ، سئم الأطلال على هاوية لا قاع لها . وما الشعر؟ الشعر أن يكتب هذا الصمت الكوني ، النهائي ، الكُلي . كان وحيداً ، بلا فكرة ، ولا امرأة ، ولا قصيدة ، ولا وعد . وماذا بعد وقوع بيروت في الحصار؟ أيُّ أفق ، أي نشيد .

عبت معه «طاولة الزهر» منذ أكثر من شهر لم يقل لي شيئاً. لم أقل له شيئاً. جلسنا ولعبنا. لعبة لا ذكاء فيها ولا مناورة. الحظ هو الذي يلعب. وعلى الحظ أن يطيع خليل حاوي، وإلاّ غضب على الحظ وعلى شريك اللعب. كان يعنيه كثيراً أن ينتصر، عكس الشاعر «أ» الذي ينتصر ويبتسم وينهزم ويبتسم، لأن ما يعنيه وما يراهن عليه يقع خارج هذا اللعب. لذلك يفتقر اللعب معه إلى شيء من الحماسة عكس خليل حاوي المتحمِّس، المتوتر، اللاعن الطاعن في الهجاء. لا أريد أن أطلَّ على شرفته. لا أُريد أن أرى ما فعله نيابةً عني. لقد خطرت الفكرة إيّاها على بالي وتراجعتُ أو تراجعت وقريباً من هذه الشرفة، بعد أربعة شوارع تحت، سقط شاعر آخر منذ قليل، شاعر سمَّى نفسه الذئب والغجري وسيِّد الرصيف. كان يوزِّع هويته الشعرية «الرصيف» عندما أصيب بقذيفة. كان عَدُوَّ المؤسسة، أية مؤسسة. وكان ينشيء مؤسسة الرصيف، كان ينشيء مؤسسته. ولكن منافسه على الرصيف، خصمه العنيد «ر» يقول باعتزاز: أنا قتلتُ علي فودة. كيف قتلته ـ سألناه. قال في هدوء عقلاني: سلَّطتُ عليه كراهيتي. كراهيتي هي التي قادت القذيفة إلى بطنه. أنا الذي قتلتُه. ألست نادماً؟ سألناه. قال: لا إنني أكرهه حيّاً وميتاً، وأستحقُّ التهنئة.

* * *

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ قادتني خُطاي في ضوء الطائرات والقذائف إلى منزل «ب». يبدو لمن لا يعرف «ب» أنه يقود هذه الحرب كُلِّها، من الجبهة العسكرية إلى المفاوضات إلى الإعلام. حيوي، فتيّ، شقي.

وجد في هذه الحرب لعبته الضائعة. إحدى يديه على الهاتف، يصرح بما يعرف وبما لا يعرف. ويده الأخرى تكتب الأوامر والتعليمات والتوصيات.

ينظِّم عشرين موعداً في الساعة ولا يتعب. خليَّة نحل في رجل كرَّسته الأقدارُ للطنين. صديق بلا شروط. مرح، ذكي، معطاء. وفي منزله صَنَمٌ لا يتكلَّم. صَنَمٌ يُهْتَفُ له. يُسْجَدُ له. كلما صمت أكثر أثارت حكمة صمته عاصفة من التصفيق. وفي منزله صديق اسمه «أ» قادر على تصوُّر شكل العالم بعد نصف قرن من الزمان. أفكاره المبنيّة على منطق شكلي سينمائيةُ الإثارة. يتكلَّمُ عن الدول الكبرى والصغرى كما يتكلَّم عن شوارع بيروت، بلا كلفة وبلا تردُّد. وإذا صَدَقَتْ آماله فهذا يعني أن هذا الشرق سيُحاصر بعد قليل بين نوعين من كهنة الظلام. أوافق على هذا الاحتمال باعتباره حداً أقصى لتطور التدهور، باعتباره أحد أشكال الكارثة القادمة. ونختلف إلى ما لا نهاية حين يرى أن ذلك هو طوق النجاة الوحيد، وأن في وُسع ظلام أن ينتصر على ظلام، ويكون الفجر لنا. وأنا لا أُصدِّق ولا أُريد أن أصدق أن تاريخ هذا الشرق سيكرر نفسه بطريقة ميكانيكية أو حتى إبداعية، مهما انفصلت شعارات السياسة الحديثة عن مبادئها، ومهما تخلَّص الخطاب من مضْمونه، فلن أتوقَّع تغيير العرب وتطوير العرب من غير العرب. ولا أرى أن ذلك النموذج المعد لإغراء اليائسين من العصر بالإيمان قد يَعِدُنا بما هو دون العودة إلى الصراع على أسئلة لم تعد أسئلتنا: ما لي وأخطاء عثمان بن عفان؟ إذ ليس هذا التاريخ، وحده، تاريخي. .

يصرُّ «أ» و«ب» على أننا لن نخرج، لا لأنهما يفتقران إلى المعلومات وخبايا المفاوضات، بل لأن فكرة الخروج من بيروت تُشبه فكرة الخروج من الجنَّة أو من الوطن. كان يصعب على مَنْ شارك في صياغة التجربة وشهد نمو بدايتها المرافق لنمّوه الشخصي أن يلقى نفسه خارجها وهو يلامس نهاية بدت له صاعقة. لم يكن أحد قد أعدَّ نفسه، ولو في الخيال، لمثل هذه الفرضية. لنفترض أن موازين القوى أخرجتنا من هذا المكان، فماذا أعددنا للرد على الاحتمال؟ ماذا أعددنا لما هو أسوأ؟ ماذا أعددنا من بدائل لهذا التمركز المؤسساتي الكثيف؟ هل أصابنا نوع من القدرية ومحالفة الحظ؟ ألم ننجُ أكثر

من مرة، فإلى متى نعتمدُ على النجاة؟

و «و» صامت بعيد عنا، وبعيد عن السحالي. منكفىء. يرى البحر. يرانا في البحر. كأنه خارج، للتو، من كابوس. لا يراهُ أحد وهو يدثر بالصمت ويردُّ عنا أمواج البحر المتلاطمة في الغرفة. هل ترى ما لا نرى يا «ميم»؟ يرد: وهل ترى ما لا أرى يا «ميم». خفت: هل رأيت حلمي. لم تكن أنت في منامي. قال: لم أكن في منامك، ولكن هل ترى ما لا أرى؟

هدأت أصواتهم ليتأكدوا من أننا أصبنا بالجنون..

أخذني إلى الشرفة: هل شُقّتُكَ آمنة؟ سألت: ماذا تعني؟ قال: هل تصلح لنوم القائد. هل جيرانك معنا أم ضدنا؟ قلت: البحر ضدنا. قال: هل تعني أنك تخشى على سفينته؟ قلت: أعني أن واجهة شقتي زجاجية ومفتوحة على قذائف البحر. قال: لا تصلح. ومن الأفضل أن ينام، الليلة أيضاً في كراج للسيارات أو على الطريق.

هَبَّتْ رياحُ الجنة. لقد استعدَّ لكلِّ شيء، وأبطل توقيعه. لم يبق على المسرح احتمالٌ لدخول شخصيات جديدة. ووقف وجهاً لوجه أمام القضاء والقدر. هل كانت التراجيديا إغريقية أم شيكسبيرية؟ لقد زُجّ بكل عناصر الدراما في المشهد الطويل. فهل يُضَحّي بالطفلة الرهينة بيروت أم يخرج إلى ما لا يعرف؟ هل يموت هنا في انفجار عظيم لتُشهر الفكرة نُبوّتها، أم يُنقذ هذا البناء على السفن؟ لم يبق هنا شيء يُحَرِّك ما هو خارج البحر والسور. وانفضَّ العالم من حول المشهد. وحيد.. وحيد إلى ما لا نهاية. هل كان وحيداً منذ البداية دون أن يدري. هل جاء متأخراً أم جاء مبكراً هذا الحاملُ عود الثقاب في حقول البترول؟ وحيد كمقطع في نشيد لا مطلع له ولا ختام، وحيد كصرخة القلب في برية..

بعض الجمعيات الدولية يُعدّ لنا الخيام لمواجهة الشتاء القادم، فنحن ما زلنا ـ في وعيهم ـ لاجئين يستدرون العطف ويخافون الشتاء. وأميركا تحتاج

إلينا قليلاً، تحتاج إلينا لنعترف بشرعية ذبحنا، تحتاج إلينا لننتحر لها، أمامها، من أجلهـا، والقبـائـل العـربيـة تقدم لنا الدعاء الصامت بدلاً من السيوف.

وبعض العـواصـم يمجـد بطـولاتـه فينـا وينكر دمنا، فلا اسم لمن يقاتل حول المطار! وبعض العواصم يعد لنا خطاب الوداع الجنائزي.

هَبَّت رياح الجنة. فهل سيقول الحقيقة. هل سيقول الحقيقة؟ لن يقول..

سألت «م»: أي بحر سنسلك؟

قال: البحر الأبيض، ثم البحر الأحمر.

قلت: لماذا أنت بعيد. هل كنت في منامي أمس؟

قال: لا أعرف. أي منام؟

قلت: كنا هنا. الغرفة ذاتها. الكلام نفسه. الصنم إيَّاه والغارات هي الغارات. دخل حارس البناية يبلغنا أن شخصاً غريباً يدَّعي أنه صديق قديم قد جاء لزيـارتكم. فوضـع كل رجـل يده على مُسَدَّسه لاستقبال ما يسفر عنه الباب من غمـوض. وخبَّأنا الصنم في الحمَّام. ولكن الزائر كان عز الدين قلق بتـوتـره الضاحك. سألناه: كيف وصلت؟ قال: كما وصلتم وصلت. لم يتغيَّر فيه شيء. بعيد وأليف. ولكنه كان ينظر إليك بريبةِ مَنْ يقابل غريباً لا يعرفه. قلنا له: اطمئن يا عز، فان «ميم» في غرفة العمليات...

كنـا نتكلَّم معـه بلا دهشـة، كأنـه مسافر عادي قادم من باريس. كان يواصـل حضـوره بيننـا ويشـاركنـا عمليـة الانسـلاخ الجماعي الكبير عن هذا المكـان. نسينـا أنـه غادرنـا إلى الأبـد منذ عشر سنين، وأن الموتى لايزورون الأحياء إلا لإثارة التأويل. ولكن عز الدين بيننا بلا جلبة ولا فزع.

سألتـه عن أحـوالـه هنـاك في الآخـرة. قال إنهـا عادية ولا جديد تحت الشمس. قلت: هل هنـاك شمس؟ قال: نعم، هنـاك شمس. سألتـه عن

المناخ فقال إنه حار ورطب. سألته عمّا إذا كانوا هناك يعرفون أخبارنا وما يحدث في هذا الحصار؟ فقال إنهم يتابعون الأخبار، ساعة ساعة، على شاشة التلفزيون. ويتألمون من الغيظ لعجزهم عن تقديم أي عون لنا. سألته عمّن وصل إليهم منّا لعلّهم قدموا لهم شهادة حيّة عما يجري. قال: لم يصل إلينا احد. قلت: وقد نسفوا مقبرة الشهداء، فهل نجا أحدٌ من الشهداء وجاء إليكم؟ قال لم نقابل أحداً منهم، وسألته: أين تقيم؟ في الجنة أم في النار؟ قال مستغرباً: ماذا تعني؟ قلت: من أين جئت: من الجنة أم من جهنم؟ قال: جئت من هناك.. من الآخرة. حدّقت إليه مليّاً لأتأكد من آثار عنوانه على جسده فوجدته طبيعياً وعادياً، كما غادرنا، لا آثار للجحيم ولا علامات للنعيم. أهذا كل شيء يا عز الدين.. أهذا كُلُّ شيء؟.. هل تزوجت؟ قال: لم أجدها بعد. مَنْ لاحظَّ له في الدنيا لا نصيب له في الآخرة. سألت: وكيف تقضي وقتك هناك؟ قال: كالمعتاد.. من المكتب إلى غرفتي في الحيّ الجامعي، ومن قاعات المحاضرات إلى بيوت الطلبة. وأتذكرك حين أسافر في القطار من باريس واقفاً، وحين أُطلُّ على منزل بيكاسو وعنزته الشهيرة، وحين أدخل المطعم ذا الجدران الممتلئة بجميع أشكال الخبز، وأتذكر الطلبة التونسيين الذين صاحوا بنا في عيد الثورة: سحقاً سحقاً بالأقدام لدعاة الاستسلام، فرددنا عليهم: سحقاً سحقاً بالأقدام لدعاة الاستسلام. التفتنا إلى «ب». فلم نجده. كان مشغولاً بحماية الصنم من القصف..

قلت لعز: أما زلنا، قبل التكوُّن، في حاجة إلى الأوهام لنتكوَّن؟

قال: يبدو ذلك

قلت: وما زلنا في مرحلة التكون في حاجة إلى أصنام يعبدها بحثنا عن المثال؟

قال: يبدو ذلك..

قلت: وما زلنا، في مرحلة سباق الدم مع الفكرة، وسباق الفكرة مع

الاطار، في حاجة إلى حبر فاسد، وإلى أدب مبتذل لنقول إننا مؤهلون؟

قال: يبدو ذلك

قلت: إذا كان الجـواب عن ذلـك هو يبـدو ذلـك، فلماذا نخـرج من بيروت إلى الفضيحة.. ودواليك؟

قال: لا أعرف

قلت: كيف تفكرون هناك؟

قال: مثلكم. كما تفكرون هنا

قلت: يا عز الدين، ماذا تفعل هنا. ألم تُقْتَلْ؟ ألم أكتب فيك رثاء. ألم نمشِ في جنازتك في دمشق. هل أنت حيٌّ أم ميت؟

قال: مثلكم!

قلت: يا عز الدين، لنفترض أنني قلت لك اننا أحياء، فهل أنت ميت؟

قال: مثلكم

قلت: يا عز الدين، لنفترض أنني قلت لك إننا موتى، فهل أنت حي؟

قال: مثلكم

صحت: يا عز الدين، ماذا تريد مني؟

قال: لا شيء.

قلت: إذن، دعني وشأني

قال: آن لي أن أذهب؟

قلت: إلى أين؟

قال: من حيث جئت

قلت: ابق معنا قليلاً.. سنخرج معاً

قال: انتهت إجازتي، وعليَّ أن أعود

قلت: من أين جئت؟

قال: لا أعرف . .

صافحنا واحداً واحداً. ولكنه خصَّك يا «م» بنظرة خاصة سحبتك منّا قليلاً. عانقناه على الباب. . حيث تلاشى كخاطرة شاردة. نظرت إلى الدرج فلم أجده. نظرت إلى الشارع فلم أجده. اختلط بأمطار القذائف. لم أجده في أي مكان. نظرت إلى شظايا الصواريخ فلم أجد أحداً. لم أجد أحداً. . عز الدين اختفى

قلت لهم: هل كان مضطراً للعودة؟

قالوا: من هو الذي كان مضطراً للعودة؟

قلت: عز الدين

قالوا باستهجان: من هو عز الدين؟

صرخت: الرجل الذي كان معنا. هنا. الآن. وما زالت خطواته تدقّ الدرج!

نظروا إليّ كما ينظرون إلى ممسوس. أشرت إلى مقعده المسكون بطيفه: هنا. هنا. . . كنتم تتحدثون إليه. كنتم تعانقونه.

لم يصدقوني. قدموا لي كأساً من الماء وفنجان قهوة. .

هل يحلم المرء وهو جالس مع الآخرين؟

هل يحلم المرء وهو يحاور؟

* * *

. البحر يقترب منا. الخريف يقترب من البحر. آب يُسلّمنا إلى الخريف. فإلى أين يأخذنا البحر؟

القصةُ إيّاها، لا أكتبها ولا أنساها. غصّةُ الكتابة وحرمانها الأبديّ، قصة الرجل الذي جلس سبعاً وعشرين عاماً فوق صخرة على شاطيء صور.

أما آن لها أن تعتقني؟ أم آن لها أن تأخذني معها إلى البحر. ولكن من يفكر بالكتابة في هذا اليوم. سأنسخها مرة أخرى لأتدرَّب على الكتابة، سأنسخها لأجد طريقي في البحر.

تعبتُ من كثرة ما سألتُ هاني: كيف نُسمِّي الرجل الذي نسينا اسمه! ومتى تأخذني إلى الصخرة التي هبط منها كمال إلى البحر؟

تساءل هاني: من هو كمال؟

قلت: هو الرجل الذي أسألك عن اسمه منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي كان جالساً فوق صخرة على شاطىء صور، في انتظار حمامة تظهر من الجنوب الغربي حين تكون الرؤية واضحة وحين يكون البحر عاقلاً. ولم يكن يعرف شيئاً، لا شيء، غير تلك الحمامة التي لا يعرفها أحد. كانت سرَّهُ الباقي. وحين كان أصدقاؤه في المخيم يجتازون الحدود ويعودون أو يموتون، لم يكن يكترث بأخبارهم أو بطولاتهم. كان يجلس على الصخرة في انتظار الوقت المناسب الذي سيأخذه على البحر إلى الحمامة. ولم يكن بإمكان الطائرات المغيرة أو جنازات الشهداء أن تسلخه عن الصخرة. كان الضباب والغروب، وحدهما، يعيدان كمال إلى العائلة.

سألت هاني: هل تعيش حمامة سبعاً وعشرين سنة؟

قال: إن كمال يعتقد أنها تعيش من الأزل إلى الأبد.

سألت: ولماذا لا يصطادها.

قال: لأنها لا تطير. ولأنه لا يستطيع الوصول إلى بُرجها.

وأخيراً وضع يديه على الطاولة وفتحهما ليسكب السرَّ دُفعةً واحدة: لماذا أُتعبك وأُتعب صدري؟ فالمسألة لا تحتاج إلى كُلِّ هذه الأسئلة: الحمامةُ هي حيفا..

.. لأن جبل الكرمل المنبثق عن صعود البحر إلى السماء وعن هبوط السماء إلى البحر، يرسم معجزة: أعني عنقاً مطوَّقة بقبلةٍ مجبولة من حجر

وشجر، أعني حيفا، تتقدَّمُها شهوةٌ حارة في شكلٍ منقار مُلَوَّن يشهد على أن في مقدور موجة جامحة أن تتحجَّر من الأزل إلى الأبد. لأن الأمر كذلك فإن حيفا تشبه الحمامة. وكل حمامة تشبه حيفا.

ولكن ما لم يدركه كمال هو أن المدينة تطير.. تطير في دمه.

وكمال ينطوي على سرِّه. يلتف بذكريات صارت أحلاماً. يتعبَّد. يزيح عن نفسه زمناً لا يستهويه فلا يعترف به. كُلُّ ما يجري في هذا الزمن هو هَمُّ الآخرين أو صغائرهم. اندلعت حروب أربع دون أن تعنيه أو تكون حروبه، طالما لم تأخذه شظيةٌ واحدة من شظاياها إلى.. الحمامة.

أعطني مزيداً من التفاصيل عن كمال يا هاني. هل عرفته شخصياً. هل رأيتَهُ في صور؟

يتردّد هاني في الاجابة، فأعرف أنه لا يعرف. ولكنه يقول:

لا يعرف البحر من يراقب البحر. لا يعرف البحر من يجلس على الشاطىء. ولا يعرف البحر من يأتي إليه ليرى مشهداً. لا يعرف البحر إلاَّ من يغوص. يجازف. وينسى البحر في البحر. يتلاشى في المجهول كما يتلاشى في امرأة الحب. لا فاصل بين الزرقة والماء. هناك تعثر على عالم لا تقبض عليه الكلمات. لا يُرى ولا يُلمس إلاَّ في أعماق البحر. البحر هو البحر..

ـ لا أُحبُّ شعرك يا هاني، حدثني عن كمال، لا تحدثني عن نفسك!

لا يستطيع. منذ ثلاث سنين وهو يروي قصته مع بحر صور. ولا شيء عن كمال، لا شيء عدا العنوان.

ـ قل لي ما هي سيرةُ كمال؟

ـ قلت لك إنه يُسَمّي حيفا حمامة. وهو أيضاً صيَّادُ سمك. يصطاد في الليل. وفي النهار يتطلَّعُ إلى الحمامة.

لا يستطيع أحدٌ ملاحقة موجة غرقت في البحر. حين يخرجُ العاشق السيء الحظ من تجربة الحب الأول ومن محاولة الانتحار الأولى، يصعب عليه وعلى قاضي المحكمة التوصّل إلى إثبات البراءة أو نفيها فيدخل في السجن الأول ويخرج إلى طريق آخر. لأن العاشق السيء الحظ يُؤثر العقوبة على الاعتراف المثير للسخرية. ماذا لو قلت: حين قطعتُ الشارع هناك لم اكن احمل قنبلة ولم أنتبه إلى لافتة «منطقة مغلقة».. كنتُ أحمل أشواك القلب لأرميها في البحر، لأن حبيبتي كانت تُزَفُّ في تلك الليلة. وماذا لو قلت أيضاً: سيدي القاضي، كنت أريد الانتحار في المجهول المائي الذي لا ينذر بالوجع.

ولكن القمر أطلَّ قويّاً فرأيت الحجارة المدبّبة تحت سطح الماء الصافي، فخفت الموت وعدت، لأنه سيكون موتاً مؤلماً، موتاً صخرياً واضحاً جارحاً. فتبّاً للذين عيّنوا موعد الزفاف في ليلة مقمرة!

ولكن، لو قلتُ ما كان ينبغي عليَّ أن أقول لأنجو من السجن، فهل كان القاضي سيقبل المسألة على هذا النحو. هل يصدق؟ هل يُصَدِّق أني اجتزتَ هذا الطريق لأنتحر من أجل فتاة لا من أجل بلاد!

وهكذا دلّني القاضي على أن للبحر طريقاً آخر. أو أنَّ في البحر سرّاً آخر. ومن يومها وأنا أذهب إلى البحر ولا أراه.

ـ هل تعرف لماذا لا تراه؟ لأنك تذهب إلى الشاطىء

ـ ولكنني أرى البحر

ـ لا أحد يعرف البحر كالآخر

ـ وماذا حدث لكمال. أما زال يرنو إلى الحمامة؟

ـ عاد إلى البحر.. عاد ليلقى الحمامة.

كان كمال قليل الكلام، أو شبه أخرس. ربما كان يعتقد أن الكلام يفسد عليه الرؤية، ويزعج الحمامة. ومع ذلك قال مرة:

في هذا المخيم
تُولد وردة

إذا عاشت طويلاً

ـ ضاعت الحمامه

ـ ماذا كان يعني؟

ـ لا أعرف. كان غامضاً. كأنه ليس منّا. كأنه لا يشاركنا العودة..

في الخريف لا يكون البحر بحرياً. يكون سجادة من ماء. ويكون الضوء قصباً..

وفي الخريف تسكت أجراس البحر. وتقرع أجراس الدم..

وفي الخريف تذبل الحمامة..

وفي الخريف يتحول القلب إلى تُفّاحة ناضجة..

وفي الخريف تنكسر الذاكرة فيسيل الخمرُ من النسيان..

وفي الخريف ينطقُ الأخرس:

يا ليتني أرمي خُطَايَ

على طريقٍ مِنْ زَبَدْ!

يا ليتني أرمي خُطَاي لكي أنام

على سريرٍ من زَبَدْ

حيفا! لماذا لم تطيري كالحمام

حيفا! لماذا لا أطيرُ ولا أنام!

حيفا! لماذا لا تقولين الحقيقة:

أنت طيرٌ أمْ بَلَدْ

يا ليتني أرمي خُطَاي

وأستريحُ إلى الأبدْ..

.. وسرق كمال زورقاً..

ظلَّ يجذف في اتجاه الحمامة. ولما اقترب منها كانت الظهيرة ساطعة. وكان ريش الحمامة المطرَّز من الحور والغيم واضحاً. وكان خرس الشواطىء واضحين. فأدار المجذاف عائداً إلى عُرض البحر وتظاهر بصيد السمك،

ريثما يهبط الغروب ويقفز إلى طوق الحمامة النائمة على بعد دقيقتين من الموج:

رأى موجته الضائعة فتعرف عليها: حين صحا، قبل سبعة وعشرين عاماً، على صوت الرصاص القادم من منطقة البلدية فتح النافذة فرأى الناس تندفع إلى الميناء، فهبط من شارع عباس وأبحر مع المبحرين إلى ميناء عكا التي لم تكن محتلة. وعلى هذه الموجة وصل إلى صور. .

. يبدو أن كمال قد فرح للطريقة التي استولى بها على مصيره الكامل. فقد التقط اللحظة الفاصلة بين زمنين لا يلتقيان. وسيطر على الموجة التي شردته لتعيده الآن. كأنَّ حالماً قد استطاع أن يصحو في اللحظة المناسبة، وأن يُسَجِّل حلمه كاملاً على ورقة. هل حدث من قبل أن عاد بحارٌ على الموجة التي شرَّدته وضاعت؟ هل حدث من قبل أن قتل قتيلٌ قاتله بضربة الخنجر ذاتها؟ هل حدث من قبل أن عاد أحد على طريق الرحيل؟. لم يتمكن من إخفاء سخريته من الطريق التي مشى عليها الآخرون كي يصلوا. لم يكن يحجّ. كان ينزل أقسى العقوبات بزمان كسره. سيجدف في هدوء. سيرسو عند أول صخرة. سيُمْسك بالزورق بكلتا يديه ليغرقه في رمل البحر بكُلِّ ما فيه من حمامات رآها في سماء أخرى. سيبوس هذه اليابسة ويغرف منها رائحة صبار تكسَّر وتبعثر. سيتحسَّسُ مفتاح أمه الذي استرده من قبرها. سيمشي في شارع الملوك المحاذي للشاطىء ويتذكر عهده الأول في بيع السمك. سيصعد الدرج الحجريَّ العتيق الذي يبدأ من درج الموارنة وينتهي عند شارع الخوري. سيلتفت إلى شبابيك تعلَّم أمامها داء التدخين والصفير الأول، ثم ينعطف يساراً إلى الساحة المليئة بالقطط، ثم يهبط خش درجات ضيقة وزقاقاً أضيق لينفتح أمامه وادي النسناس بشرفاته المتدلية على كنيسة الروم. سيتحاشى النظر إلى الزاوية الشرقية المطلة على درج عريض يؤدي إلى حيٍّ

اليهود. سيشتري رغيف خبز طازجاً من الفرن الواقع على رأس الوادي. سيصعد درجاً طويلاً على اليمين. سيحيي السكّان الجالسين على شرفات تجلس على الأرض عند مدخل شارع حدّاد. ويصل إلى تقاطع الدرج مع ثلاثة شوارع صاعدة يأخذها أحدها إلى شارع عبّاس. سيصعد ويصعد ويصعد ولن يلهث. سيقف طويلاً أمام القنطرة ليملأ رئتيه برائحة السنديان والطيّون. ثم يمشي سبع خطوات فيطلع عليه البحر والميناء. يجلس على المقعد الخشبي العتيق ويداعب صور التي يراها من بعيد لأول مرة فيحبها لأول مرة أيضاً. سيَضع المفتاح في مزلاج الباب فلا ينفتح من شدّة الصدأ. سيدق على باب الجيران، ويُسَلم عليهم ويشاركهم فرحتهم بعودته سالماً ويعتذر عن الرحيل. سيفتح باب بيته ويسرع إلى حنفيّة الماء ليسقي النباتات التي عطشت. سيتمدد على بلاط البيت وينام ساعات.. ساعاتٍ.. ساعات. سينام إلى الأبد.

صحا كمال من غفوته القصيرة. الفرح يملأ البحر. ومن فرط إحساسه بالحرية شعر أنه حَبَّةُ قمح، وأن البحر تربة خصبة. وأن الموج سنابل..

نظر إلى ساحل يمتدُّ في يده الممدودة، فرأى قطعة الماس تخرط الجبل لتنحت له مهداً سريعاً. سينام أعلى من البحر قليلاً.. أعلى من النوم. سيشتهيه البحر. سيحوله إلى عصفور من الحجر. سينام بعد قليل..

وحين هبط الغروب، جدَّف كمال بحماسة لم يعرفها من قبل. وحين اقترب من الشاطىء سلّطَتْ عليه الحمامةُ أضواءها الكاشفة. لقد احتاج الأمر إلى وقت ليعرف كمال أنه مُحَاصَرٌ بزوارق حربية، وأن البنادق مُصَوَّبة عليه من جهات البحر كُلّها، وأن الحمامة ليست هي التي تبهر عينيه..

تجَعَّدَتْ الموجة.

تجعَّدَ القلب..

ـ هل معك اسلحة للقتل؟

ـ معي حنين يقتلني

ـ من أين أنت؟

ـ من الحمامة.

ـ إلى أين تمضي؟

ـ إلى الحمامة

ـ ما هي هذه الحمامة؟

ـ حيفا

ـ من أرسلك؟

ـ خيط الدم

ـ كم عمرك؟

ـ موجة تأتي وتضيع

ـ أين كنت تقيم؟

ـ في صور

ـ ماذا كنت تعمل هناك؟

ـ اصنع آلهة

ـ ما أسماء آلهتك؟

ـ الحمامة

ـ هل أنت فدائي؟

ـ لا

ـ وماذا تريد؟

ـ اريد أن أدفن جُثَّتي بيديّ تحت طوق الحمامة

لم يُصَدِّقه رجال الشرطة البحرية ولم يفهموه. ظَنُّوه يناور. صعدوا إلى زورقه بحذر شديد. قيّدوه، نزعوا ثيابه. ولم يجدوا شيئاً، لا سلاحاً ولا هوية.

سألوه إن كان صياداً ضلَّ الطريق في البحر. قال: لا، أنا لا أضل الطريق، أنا أعرف الحمامة جيداً، وجئتُ لأرى الحمامة.

لم يفهموه. هم أيضاً من حيفا ولكنهم لا يعرفون أن حيفا حمامة.

ـ هل كل ما في الأمر أنك تريد أن ترى الحمامة؟

ـ نعم..

ـ إذن، سترى الحمامة!

ـ دَقُّوا يديه وقدميه وكتفيه بالمسامير على خشب الزورق، وقالوا: إبق هنا. وانظر إلى الحمامة. الحمامة أمامك..

كان ينزف، وكانت الحمامة تكبر وتصغر.

وبعد أسبوع، أعاد البحر جثته إلى شاطىء صور، إلى الصخرة التي كان ينظر منها إلى الحمامة..

أهذا هو البحر؟

هذا هو البحر..

* * *

دخلت في ليل المدينة الكحليّ مثقلا بالتعب و«كوابيس اليقظة». دارت بي حياتي دورات حادّة. لا أستطيع أن أواصل هذا التقاطع في الزمن، ولا أستطيع أن أتوغّل في ما هو أكثر من أوّل الليل. من أوصلني إلى الزقاق الفاصل بين «ماي فلور» و«نابليون»؟ لن أدخل إلى هذا المكان، فقد حفظتُ ما سأسمع. كانت قنابل الطائرات المضيئة تفتح ظلام الزقاق واسعاً لخطيٍّ أجرُّها جرّاً، ها لم أمُتْ. هنا لم أمت بعد. من عشر سنين وأنا أسحبُ ظِلّي على هذا الرصيف، وأوقّع غربتي، وأعرف انني لن أبقى أكثر من عام. تكدّس العام على العام. منذ عشر سنين وأنا أقرع هذه البوابة وأتلافى البحر. كنتُ أوثر الطريق البرّي، الطريق الأول الذي مشيتُه منذ ثلاثين سنة، وسلكتُهُ ثانية إلى هناك. هل نسيتُ أن ارجع، أم نسيتُ أن اتذكر؟ كيف كان كُلُّ شيء، أيّ شيء، منذ عشر سنين؟ تمشي أيامي أمامي كقطيعٍ من ماعز لا يأتلف. تمشي أيامي ورائي كرائحة الوردة الواقفة عكس الريح. وتمشي أيامي حولي كما أمشي حولها الآن في لعبة الكراسي الموسيقية الصادرة عن آلات معدنية. هنا لم أمت. هنا لم أمت حتى الآن. ولكن هذا الصراخ الهابط من السماء، والصاعد من الأرض لا ينقطع، ولا يُتيح لأية صورة من صُور أيامي أن ترسو على شكلها، ولا يأذن لخوفي بأن يتكامل ولا يسمح لطيشي بأن يتغافل. كفى! حركت يدي في ظلام الزقاق المضيء لأطرد عن رؤ ياي سحابة الطائرات كما يطرد المرء الذباب. كفى! قلتُها بصوت أعلى، فردَّت بصوت أعلى وأعلى.. ونصفتْ كتلاً من لهيب أعادتني من رحلة القطار المسافر من حيفا إلى يافا لأعرف أني أسيرُ على طريق آخر. كفى! فهمتُ.. وماذا لو كنتُ هنا. هنا لم أمت.. لم أمت بعد. كفى.. سنخرج، قلنا سنخرج، فلماذا تواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى.. ليتنا لا نخرج ما داموا يواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى، يا أولاد الكلبة، أيها المفتونون بعضلات الحديد وأشعة الليزر والقنابل العنقودية والقنابل الفراغية.. كفى! استعراض قوة

مترف. قضم المدينة والأعصاب. والظلامُ سريع الانتشار في مدينة لا كهرباء فيها. قطعة فحم واحدة تُنجب هذا الظلام كُلّه في أقل من نصف ساعة. ولأول الليل مذاق مُرّ، حامض، رخو. مذاق يخلق في النفس بلاداً غريبة الغربة، ويخلق في عطش الجسد الرطب شوقاً خاملاً إلى عطش جسد رطب آخر. ويسوق النسيان إلى مجرى آخر: كلانا يقتل الآخر خلف النافذة. قطار الساحل يُسابق البحر على اليمين، ويسابق الشجر على اليسار. مطر، مطر وشجر، مطر وشجر وحديد. مطر وشجر وحديد وحرية. وصديقي الشقيّ يداعب صديقي الساحل المكفهر بلا نهاية. لأول مرة، يأذنون لنا بأن نغادر حيفا، شريطة أن نعود في الليل، لنذهب إلى محطة الشرطة الواقعة على طرف الحديقة، حديقة البلدية، ليقول كل واحد على طريقته: سجل ـ أنا موجود.

سجّل! إيقاع قديم أعرفه. سجل ـ انا، أعرف هذا الصوت البالغ من العمر خمساً وعشرين سنة. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت، يا للزمن الحي الخارج من الزمن الميت. سجل: أنا عربي، قلت ذلك لموظف قد يقود ابنهُ إحدى هذه الطائرات. قلتُها باللغة العبرية لأستثيره. وحين قلتُها باللغة العربية مسَّ الجمهور العربي في الناصرة تيارٌ كهربائي سري أفلت المكبوت من قمقمه. لم أفهم سرّ هذا الاكتشاف، كأنني نزعت الصاعق عن ساحة ملغومة ببارود الهوية، حتى صارت هذه الصرخة هي هويتي الشعرية التي لا تكتفي بأن تشير إليّ، بل تطاردني.

لم أدرك أنني كنت في حاجة لأن أقولها هنا في بيروت: سجل، أنا عربي. هل يقول العربيُّ للعرب إنه عربي؟ ياللزمن الميت، يا للزمن الحي! نظرتُ إلى ساعة يدي لأعرف ما هو عمري الآن. خجلتُ من هذه النظرة: هل ينظر المرء الى ساعة يده ليرى عمره. منذ أسابيع نصب لي الصديق «أ» كمين الأربعين. صرخ معين في الحفلة مقهقهاً: لم تعد فتى. الحمد لله

تخلصنا من فتىً آخر. لم تعد فتى. لقد صرت في الأربعين! قلت له: وماذا يبهجك يا عجوز؟ قال: يبهجني أنك في الاربعين. قلت: أنسيت أنك تقترب من الستين؟ قال: ليس هذا مهماً. الأعمار كلها تتشابه بعد عتبة الأربعين. لقد أدركتني الآن. منذ عشرين سنة وأنا أنتظرك هنا على عتبة الأربعين، وها أنت وصلت. اهلاً وسهلاً. لم تعد فتى، لم تعد فتى. لقد سكر معين حدَّ الهذيان، حدَّ الظن بأني أكبر وهو يتوقف عن الكبر. فتنتهُ المساواة.

قلنا: عاشت المساواة. واحتفلنا به. . يا للزمن؟ القطار يقُصُّ البحر والشجر. الشجر والبحر يهربان من القطار. قطار الزمن على حديد العمر. هل كنا حقاً في العشرين عندما أخذتني هويتي الى ذاك النشيد المصكوك بحوافر خيل يلتهمها الأفق المفتوح على أفق مفتوح على أفق لا نعرف إن كان مفتوحاً أم مغلقاً؟. وهل كنت حقاً في السابعة والعشرين حين احتكَّ نشيد الهوية بنشيد الأناشيد وشبَّ حريقٌ في السوسن، وسمعتُ آخر صرخات الحصان الهاوي من جبل الكرمل إلى البحر الأبيض المتوسط؟ إلى متى يتذكر الوجع أفعاه الساحرة. . والى متى نواصل الذهاب نحو الأربعين؟ مصادفة. . . ليس أكثر من مصادفة أن يكون الخروج من الجسد خروجاً من البلد. ولم أتذكر هذه المصادفة إلا الآن. قطار ومطر وشجر، ومدفأة، وقدمان حافيتان يضاوان على جلود عشرين خروفاً مروا في نشيد الأناشيد. والمغني يغني لسوزان التي أخذته الى النهر. وهي تقول لي: خذني إلى استراليا، وأنا أقول لها: خذيني إلي القدس. لا، لم أتذكر شيئاً ولكني كنتُ أحلم، فهل الحلم هو اختيار النسيان

ومن المنام يخرج منام آخر: هل أنت حي. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت. لقد اكتملت الدائرة. أمي البعيدة تفتح باب غرفتي وتقدِّم لي القهوة على طبق من قلبها. أداعبها: لماذا أذنت لي أن أضع ركبتي على السكين وأضغط لتبقى معي هذه الندبة؟ ولماذا أذنت لي أن أمتطي الحصان ما دام سَرجه سيسقط ليسقطني تحته ولتبقى على جبيني هذه الندبة؟ الظلامُ الكحلي يتفتَّح، ينفرج،

يصير أبيض. الظلام أبيض حالك البياض. وجدتُ نفسي جالساً على مقعد جلديّ مريح، أستمع إلى ثلاثي القتل المتناغم: الطيران، والبحرية، والمدفعية. أشعلت قنديل الغاز لأعدّ طقوس النهاية. ما زالت الساعة العاشرة مساء. حملت قنديل الغاز ذا الشخير الأليف ومشيتُ إلى غرفة المكتبة لأكتب وصيتي. لم أجد ما أوصي به. لا سرَّ في حياتي. لا مخطوطة سرية، ولا رسائل خاصة احتفظ بها. وناشري معروف. وحياتي فضيحةُ شعري، وشعري فضيحة حياتي. رفَّ على بالي مطلع قادم من سطوح بيوت الجيران: يطيرُ الحمام. يحطُّ الحمامُ. يطيرُ الحمامُ. يطير الحمامُ. أعجبني أن أموت في الأربعين، لا قبل، ولا بعد. . .

سمعتُ نقرتين على الباب. . هي، هي المشدودة كنداء أخير. هي المهووسة بإطفاء الملح المشتعل في دمها. ناديُتها باسم آخر. قالت: من هذه؟ قلت: لا أحد.

حملتْ مصباح الغاز، وراحت تبحث عن الاسم الآخر في كل مكان وعلى الشرفة. لم تجد أحداً.

ـ هل تهذي، أم تحلم؟

ـ شيء من هذا، شيء من ذاك.

ـ من هي؟

ـ لا أحد. . .

ـ هل تهذي؟

ـ احياناً. .

اقتربت مني، وأشعلت نار بطنها الناعمة. . ناراً زرقاء بيضاء، فحيح. هسهسة ملح. أنين قطط مكبوت. ورغبة في موت مختلف.

ـ أفي كُلِّ يوم؟ قلت.

ـ في كل يوم إلى أن ينتهي الحصار. أعودُ إلى بيتي. . وتخرج من هنا. كن تابوتي لأكون تابوتك.

ـ على الشرفة. أريد أن أرفع تابوتي على الشرفة، على مرأى من طائراتهم وبوارجهم ومدافعهم، على مرأى من أضواء الأشرفية.

ـ مجنون؟

ـ مجنون في الحياة.

ـ لا. . . .

ـ على الشرفة سترفعين تابوتك. الشرفة هي اعتداء الحياة على الموت. هي مقاومة الخوف من الحرب. لا أريد أن أخاف. لا أريد أن أخجل.

ـ ولكن، كيف أصرخ على الشرفة؟

ـ أمن الضروري أن تصرخي دائماً؟

ـ الرجل لا يفهم المرأة.

ـ المرأة لا تفهم الرجل. .

. . وهنا، لم أمت. هنا لم أمت. منذ عشر سنين وأنا أعيش هنا. لم أعش في أي مكان عشر سنين. لم أتآلف مع رائحة الخضروات ونداء الباعة، وضجيج البار المُسَلَّح، ومشاكل الماء والمصعد كما تآلفتُ هنا. هنا لم أمت. شرفات كثيرة تطل على شرفات كثيرة مفتوحة في الربيع والصيف والخريف وبدايات الشتاء ونهايات الشتاء لتبادل الاسرار والفضائح الصغيرة وأجهزة التلفزيون العالية الصوت، وروائح الثوم والشواء، وأصوات اهتزاز الأسرة في ساعات بعد الظهر وفي الليل. شارع صغير، صغير اسمه شارع «يموت». وهنا لم أمُتْ. وهنا، منذ قليل، في موسم السيارات المفخخة، كنت أمشي مع أحد الجيران في أول المساء، حين استمعنا إلى خشخشة في سيارة، فنبهّنا سكان الشارع إلى ضرورة مغادرة بيوتهم ريثما يصل الخبير العسكري، فإن انفجار سيارة واحدة يقضي على سكان الحيّ الذين جاءوا، بحثاً عن الأمان حول الجامعة الامريكية، من كل انحاء المجازر والطوائف. وحين جاء الخبير العسكري وعاين السيارة لم يعثر على مائة كيلوغرام من الديناميت، كما

توقعنا، بل عثر على جرذ جائع يقضم أمعاء السيارة. ضحك الحيُّ كلُّه حين عرف أن في وسع جرذ واحد أن يهَجِّر حياً. نعم، في وسع جرذ واحد أن يهجِّر مدينة، وأن يحكم دولة!

وهنا، لم أمت. لم أمت بعد. كُلَّما كانت تحطُّ الطائرة في مطار بيروت كنتُ أشمّ روائح المجهول، وعبق الرحيل القادم. كان الضباب الصاعد من رطوبة الصيف، وجفاف الربيع القاسي، اللاذع، السريع يوقظ فيَّ حاسة المؤقت: هل سنبقى هنا؟ لن نبقى هنا. يبدو أن لنهايات الأشياء شكلاً محدَّداً، شكلاً من الغموض المحدد، شكلاً من أشكال تواطؤ الطبيعة مع الهاجس، أي هاجس، وخاصة في آبْ. آب الشهر الدنيء، السافل، العدواني، الحاقد، الخائن. . آب القادر على تزويد الرمز بما يحتاج إليه من جثث، وعلى مدِّ تراخي الجسد بما تبول عليه الطبيعة من عبوس البخار ونذير الرطوبة المحتقن. وجهُ آب وجه حاقن لا يجد مرحاضاً ولا حائطاً مجهولاً. آب شهر قذرٌ، ضجرٌ، قاحل، قاتل، مائل إلى نهايات تطول مقدماتها، نهايات لا تبدأ ولا تنتهي، كأنَّ آب طائفية الفصول التي لم تجد أتباعها بعد. آب قادر على استفزاز البحر، البحر الذي يحيل إلى الأفق زفير الرصاص.

- قل لي، يا أخ محمود، ماذا تقصد بالبحر، ما معنى البحر، البحر طلقتك الأخيرة؟

- من أين أنت يا أخ؟

- من حيفا.

- من حيفا، ولا تعرف البحر.

- لم أولد هناك، وُلدت هنا في المخيم.

- وُلدت هنا في المخيم، ولا تعرف البحر؟

- نعم. أعرف البحر. ولكنني أعني: ما معنى البحر في القصائد؟

- معنى البحر في القصائد هو معناه على حافة البرّ.

- هل البحر في الشعر، هو البحرُ في البحر؟

ـ نعم. البحر هو البحر. في الشعر وفي النثر، وعلى حافة البرّ.

ولكنهم قالوا لي: إنك شاعر رمزيّ، مغرق في الرمزية، لذلك ظننتُ أن بحرك غيرُ البحر الذي نعرف، غير بحرنا.

ـ لا، يا أخ، خدعوك. بحري هو بحرك، وبحرك هو بحري. نحن من بحر واحد، وإلى بحر واحد.. البحر هو البحر...

يتعجب المقاتل من عجز الشاعر عن تفسير شعره. أو يتعجَّب من سهولة الشعر ما دام البحر هو البحر. أو يتعجَّب من حقِّ الواقع البسيط في الكلام:

ـ ألستَ أنت، يا أخ، مَنْ يُدخل البحر إلى الشعر، حين تحمل البحر على كتفيك وتُثَبِّته أين تشاء. ألست أنت، يا أخ، من يفتح فينا بحر الكلام على مصراعيه؟ ألست أنت بحر الشعر، وشعر البحر؟.

ـ أنا بريء. أنا أدافع عن حقّي وعن ذاكرة أبي، وأحارب الصحراء.

ـ وأنا أيضاً.. ولكن البحر، يا أخي، هو البحر.

وإليه سنمضيَ بعد قليل، في سفن نوح الحديثة، في أزرق يسفر عن أبيض لانهائي، ولا يُسفر عن ساحل. إلى أين.. إلى أين يأخذنا البحرُ في البحر؟.. وهنا لم أمت. لم أمت بعد.. سأنام. ما النوم؟ ما هذا الموت السحري المغروس بأسماء العنب جسد ثقيل كالرصاصة يرميه النوم في سحابة من قطن. جسد يتشرَّب النوم كما يتشرَّب النبات المهجور رائحة الندى. أدخل في النوم، رويداً رويداً على وقع أصوات بعيدة، أصوات قادمة من ماض مبعثر على تجعُّد السرير والأيام. أقرعُ باب النوم من عضلات ترتخي وتتوتر. فيفتح لي ذراعه. أستأذنه في الدخول فيأذن لي. أدخل. أشكره. أمدحه. أحمده. النوم يناديني وأنا أنادي النوم. النوم سواد يتفكك تدريجياً إلى رمادي وأبيض. النومُ أبيض، انفصالٌ وأبيض. استقلالٌ وأبيض. ناعم وقوي وأبيض. النوم صحوة التعب وأنينهُ الأخيرُ.. وأبيض. للنوم أرض بيضاء وسماء بيضاء وبحر أبيض، وعضلاته قوية،

عضـلاتٌ من زهـر اليـاسمـين. النـوم سيِّـد، أمير، ملك، ملاك، سلطان، وإلـه. استسلم إليـه كما يستسلم العـاشق لمدائـح المـرأة الأولى. النوم. جواد أبيض يطير على سحاب أبيض. النومُ سلام. النوم منام يخرجُ من منام:

ـ هل أنتَ حيّ؟

ـ في منطقة وُسطى بين الحياة والموت.

ـ هل أنت حي؟

ـ كيف عرفت أني اضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟

ـ لأنك أيقظتني الآن حين تحركت في بطني. هل أنت حيّ؟

ـ لا أعـرف، لا أريـد أن أعرف. ولكن هل يحدث كثيراً أن يوقظنا من المنام منامٌ آخر هو تفسير المنام؟

ـ هذا ما يحدث الآن.. هل أنت حي؟

ـ ما دمتُ أحلم، فأنا حي. لأن الموتى لا يحلمون.

ـ هل تحلم كثيراً؟

ـ حين أقترب من الموت...

ـ هل أنت حي؟

ـ تقريباً، ولكن في الوقت مُتسعاً للموت.

ـ لا تمت.

ـ سأحاول.

ـ هل أحببتني؟

ـ لا أعرف.

ـ هل تحبني الآن؟

ـ لا.

ـ الرجل لا يفهم المرأة.

ـ والمرأة لا تفهم الرجل...

لا أحد يفهم أحداً.

ولا أحد يفهم أحداً . .

لا أحد يفهم . .

لا أحد . . . . .

لا أحد . . .

البحر يمشي في الشوارع . البحر يتدلّى من النوافذ وأغصان الشجر اليابس . البحر يهبط من السماء ويدخل الغرفة . . أزرق . . أبيض . . زبد . . موج . لا أحب البحر . . لا أريد البحر ، لأنني لا أرى ساحلاً ؛ ولا حمامة . . لا أرى في البحر غير البحر . . لا أرى ساحلاً . لا أرى حمامة .

شركة الفجر للطباعة
العاشر من رمضان
ت : ٣٦٢٨٨١ ـ ١٥.

رقم الإيداع : ٨٩/٣٤٧٤

الترقيم الدولي : ١ـ٨٣ـ٠ـ٢٣٥ـ٩٧٧



قبل بحرٍ جديد ، ومنفى جديد : من بين الأنقاض ، والحرائق ، وأبدان الشهداء المتفّحمة .. وتحت القذائف والقنابل الإسرائيلية المعربدة التى كانت تستهدف كلّ شهيق وكلّ زفير فلسطينى ــ يسّجل محمود درويش (الشاعر الفلسطينى ، العربى ، صاحب الموهبة الأكثر تفجراً ، ربما منذ المتنبى وحتى الآن) ما لا يمكن و ما لا ينبغى محوه : من المَشَاهِد ، ومن المشاعر ، ومن أشكال معايشة ، ومواجهة ، الموت والحصار .

فى هذا الكتاب يسّجل محمود درويش ــ بنثره الشعرى الآسر ــ ما يجب أن يبقى ، من ذلك اليوم ، فى الذاكرة الفلسطينية ، والعربية ، والإنسانية .. يسّجل ما يجب ألاّ يمحوه النسيان .



